

الثورة الشعبية في القسطنطينية

سنة ٥٣٢

دكتور رافت عبد الحميد محمد

استاذ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب — جامعة عين شمس

منذ انتقلت روما من على ضفاف التيبر ، الى شطآن البسفور ، أخذت حادثات التاريخ ، على امتداد ثلاثة قرون من الرابع الى السابع تنبىء بالتحول الى عصر جديد . من عالم روماني ، ثقافته اللاتينية ولسانه ، الى عالم روماني اصطبغ بالصبغة اليونانية ، فكرا ولغة . بل أصبح منذ القرن السابع الميلادي وحتى الخامس عشر ، عالما رومانيا بلسان يوناني ! فقد بنيت روما الجديدة . القسطنطينية . في قلب عالم اليونان ، وفيها امتزج وتفاعل تراث اليونان بخياله الواسع ، وميثولوجياه ، بمدارسه الفكرية وفلسفاته ، مع تراث الرومان بسماته العملية ونظمه ، بتشريعاته وقوانينه . هذا وذاك الى جانب العقيدة الجديدة ، المسيحية ، والتي غدت في أخريات سنى القرن الرابع الميلادي ، على يد الامبراطور ثيوديسيوس ، الدين الرسمي للامبراطورية . ومن هذا التفاعل في بوتقة القسطنطينية ، وجدنا أنفسنا في القرن السابع ، على اعتاب عصر جديد ، هو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بـ « العصر البيزنطي » .

وحرص أباطرة الرومان في القسطنطينية ، على أن لا تبدو حاضرتهم الجديدة ، أقل بهاء ورونقا ، من روما التيبر ، فالسوق والساحة والحمامات والهيدرودوم ومجلس السناتو ، تم تشييدها ، وان خلت روما الجديدة من

البانثيون والإكابييتول ، فقد تم الاستعاضة عن ذلك بكنائس القديسين والحكمة المقدسة « أيا صوفيا » ، الى الحد الذى غدا بمقدور العابد ، على حد رواية واحد من المعاصرين ، أن يصلى كل يوم جديد ، على مدار السنة ، فى كنيسة غير التى صلى فيها بالأمس . وأزدانت المدينة بالقصور الامبراطورية الفخمة ، وبيوتات كبار النبلاء والمترفين ، حتى بهرت الباب القادمين اليها من وفود الدول الأجنبية ، والقباطل القاطنة على حدودها . واستغلت ادارة الخارجية البيزنطية هذه المظاهر البراقة فى العاصمة ، للتأثير على نفوس أولاء السفراء الساعين الى بلاط القيصر الرومانى ، للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا ، أو طمعا فى آقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب ، التى تعتبرها أولئك الشعوب المحيطة بالامبراطورية ، خاصة القبائل النازلة عند حدودها الشمالية والغربية ، نوعا من التكريم الرومانى ، يتنافس فيه المتنافسون (١) .

والى جانب هذا الثراء الذى يشع من جنبات الحى الشرقى فى القسطنطينية ، كانت هناك الأحياء الفقيرة والحارات الضيقة ، التى يقيم فيها الأندىاء من سكان العاصمة ، من العبيد وأنصاف الأحرار ، والمتسولين والعمال المؤقتين ، وعمال اليومية وصغار الحرفيين . والى جوار هؤلاء وأولئك كان هناك أبناء الطبقة الوسطى من التجار وأصحاب المهن الحرة ، كالأطباء والمعلمين الخصوصيين الذين يقومون بالتعليم بدافع من أنفسهم ، والموثقين القانونيين ، وأصحاب السفن وأصحاب البيوت التجارية ، والمثقفين (٢) .

(١) بسط الامبراطور قسطنطين السابع هذه الأمور بصورة واضحة فى كثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » .. راجع : De Administrando Imperio, Cap. 43-44, 46, 50-51, 53.

(٢) راجع البحث القيم الذى نشره دكتور وسام عبد العزيز فرج ، تحت عنوان « أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى » ، مجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة ، العدد الخامس ، ص ٨٣-٩١ ، ١٠١-١٠٧ .

ويصف بول ويلمان (٣) القسطنطينية فى القرن السادس فى عبارات بليغة بقوله : « ... تردحم فيها البيوت المتلاصقة التى يسكنها خليط من الأجناس ، يتكلمون لغات مختلفة ، وغرباء يتحدثون بالأسنة تختلط فيها اللاتينية باليونانية . أصحاب حوانيت ومتسولون ، عاملون وعاطلون ، أخرار وأرقاء ، شرفاء وأذال ، مؤمنون وملحدون ، كل يمضى لغرضه عبر الشوارع الواسعة أو الأرقعة الضيقة ، منهم من يعمل فى جهد ، ومن يجوب المدينة باحثا عن عمل !! » .

على أن الشئ الذى تجدر ملاحظته ، أن الفصل التعسفى الذى حاول الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) تأصيله بين الطبقات فى المجتمع الرومانى ، أبان القرن (الثالث الميلادى) ، وذلك بمنع الانتقال من طبقة اجتماعية الى أخرى تعلوها ، لم يحقق الهدف الذى كان يرتجيه منه واضعه ، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح امبراطورا ، كما استطاعت ابنة حارس الدببة أن تقفز الى العرش ، بالزواج من ولى العهد . وكان بمقدور أى شاب ماهر مغامر أن يشق طريقه الى أعلى المناصب ، بل الى العرش الامبراطورى (٤) . بحيث يمكن القول مع الدكتور وسام عبد العزيز (٥) ، أن طبقات مجتمع القسطنطينية لم تكن عبارة عن صناديق اجتماعية منفصلة على أبنائها ، فالصعود الاجتماعى أو الهبوط من وإلى طبقة أخرى ، كان أمرا واردا ، ذلك أن الطبقات الأفقية لمجتمع القسطنطينية كانت تتسم دائما بالقلق وعدم الاستقرار ، وأحيانا ما كان الهرم الاجتماعى لهذه الطبقات يهتز بشدة ،

(٣) بول ويلمان : ثيودورا ، ص ٦ . ويضيف « انها تنبسط كما لو كانت مطوقة بأذرع ثلاث . . . البسفور والدرنديل والقرن الذهبى ، تتألق كأنها مرصعة بثروة العالم ، متباهية فى كبرياء ، سفسطائية . . . خلافة ، وشعبها فى حركة دائمة . . . وقورة محتشمة ، عابثة مستهترة ، رقيقة قاسية ، متحضرة متوحشة . . . »

(٤) هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رافت عبد الحميد ، ص ٣١٢ .
(٥) أوزدكتور وسام عبد العزيز ثينا بأسماء الأباطرة البيزنطيين ، الذين يعودون الى اصول اجتماعية متواضعة أو غامضة . انظر : مجتمع القسطنطينية ، ص ٧٤-٧٨ .

بسبب اندفاع خط عمودى يخترق الطبقات الاجتماعية الأخرى من القاعدة الى القمة ، أو نتيجة هبوط عمودى عكسى ، مما يعبر عن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار فى المدينة ، التى تعكس الاضطراب فى الامبراطورية كلها » . لقد كانت العاصمة تعد مركز الحياة الاجتماعية والسياسية لبيزنطة ، فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الامبراطورية^(٦) . ذلك أن تلك المدينة الكبيرة ، كانت تعتبر من عدة نواح ، عالما مصغرا للامبراطورية جميعها فى كل شىء ، حتى يمكن القول انها ظلت لقرون عديدة تمثل سيادة الدولة ومكانتها وفخارها ، قوتها العسكرية وسمتها العالمى ، ثراءها وثقواها ، مجدها الأدبى وسمعتها الفنية^(٧) .

مدينة على هذا النحو ، تمثل عالم الامبراطورية ، كأن لا بد أن تترخر بالوافدين اليها من كل أقاليم الامبراطورية ، مدنها وقراها ، بعضهم للتجارة ، وبعض ثان لمسائل قانونية ، وثالث للمتعة والسرور ، ورابع للمغامرة والبحث عن حظ لم يوانته فى بلده ، وقد عبر عن هذه الحال ، الامبراطور جوستينيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥) فى واحد من قوانينه بقوله : « خلت الولايات من ساكنيها بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »^(٨) . تغص بهم الشوارع والبيادين منذ مطلع الشمس الى ما بعد مغربها . والمواطنون يرفلون فى ثيابهم الحريرية الموشاة بالذهب ، يمتطون صهوات جيادهم المظهمة ، يبدون فى زينتهم كما الأمراء ، ويتحركون فى وسط التجار القادمين من كل أنحاء العالم ، وصقالبة مغاورن ، وصيادون من الأرمن والاسكندنافيين ، محظوظون ، وجنود فى بزاتهم العسكرية ، وحراس من الوريث Varangian . والخزر والروس ومرتزقة من

(٦) هسى : العالم البيزنطى ، ص ٣١٢ .

(7) Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, p. 95.

(8) Ius. Nov. LXXX.

اللاتين • ونساء يتبرجن فى أبهى زينة ، ليعطى هذا كله المدينة زخرفها وحياتها^(٩) •

وقد ساعد على ذلك ، الموقع الممتاز الذى تنقف عليه القسطنطينية ، اذ تمثل حلقة الاتصال الحضارى والتجارى بين آسيا وأوروبا • فعلى شطآنها يقع طريق التجارة البحرى الذى يربط البحر الأسود وما وراءه شمالا ، وبحر ايجة فى الجنوب وما يفضى اليه ، حيث البحر المتوسط وسوريا ومصر ، وما خلفهما من تجارة الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى • وتحت أسوارها يمر الطريق البرى الهام الذى يصل بين آسيا الصغرى والصين عبر فارس وأوروبا ، والذى يمثل الشريان التجارى الحيوى للقسطنطينية بصفة خاصة ، اذ هو طريق الحرير القادم من الصين الى العاصمة الامبراطورية •

ومن الطبيعى والحالة هذه ، والعاصمة تموج بهذا الخليط من البشر ، أن يصبح حفظ الأمن وضمان الهدوء فيها ، أمرا ليس باليسير ، خاصة بين جموع سريعة الهياج ، صخابة ، منقسمة على نفسها شيعا وأحزابا ، ما تلبث أن تتقلب — على حد قول شارل ديل Ch. Diehl — من الاغراط فى البهجة والأمل ، الى التخبط والنتيه ، ومن اللهو الى الثورة ، ومن الشعور بالعظمة والفخار ، الى حائط اليأس والقنوط^(١٠) • ووسط هذه الجمهرة من العاطلين والمتنتطين ، يمسى الولع بكل ما يسبب الاثارة شيئا مرغوبا فيه ، بل وقائما • ويجد المشاءون بالشائعات ، والقيل والقال ،

(٩) Diehl. *By zantium*, p. 109. ولزيد من التفاصيل عن هذا الخليط العجيب من جنى البشر ، الذى كانت تزخر به القسطنطينية ، وطبائع هؤلاء الناس وطرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، راجع :

Downey, *Constantinople in the age of Justinian*, pp. 14-44.

وأيضا :

Manojlovic, *Le peuple de Constantinople*, Cin *By zantium*, XI, pp. 617-716).

(10) *Byzantium*, p. 109.

أذا صاغية لدى جمهور متحفز ! عدة ما كان زعماءهم يلتقون أبان القرن السادس تحت عقود الرواق الامبراطورى ، وفى محلات بائعى الكتب ، حيث تدور أحاديثهم حول مختلف الموضوعات ، فى الفلسفة والسياسة ، فى الطب والعقيدة ، وبأسلوب الواثق المتعصب ، مما يترك تأثيره البالغ فى نفوس سامعيه من العامة ، الذين يبلغ بهم العجب مبلغه لهذا انذى يسمعون ، وللثقة الزائدة التى يعلن بها هؤلاء المتحدثون أخبارهم ، ويعرضون من خلالها آراءهم (١١) .

والقسطنطينية ، شأن روما القديمة ، والمدن الأخرى الكبيرة فى الامبراطورية ، يحرص أهلها دوما على الاستمتاع بما يجرى فى الهيدروروم Hippodrom من سباق العربات والعروض المسرحية وألعاب السيرك وألوان الرقص والغناء ، وينقسم جمهور النظارة بطبيعة الحال على نفسه لتشجيع هذا الفريق أو ذاك من المتسابقين ، بكل الحماسة والهوس المتأصلين فى جماهير هذه المدن ، والذى عهدناه على مر التاريخ البيزنطى ، ليس فى القسطنطينية وحدها ، بل فى مدن أخرى مثل أنطاكية والاسكندرية وسالونيك مثلاً (١٢) . وكان سباق العربات أحب

(11) Id.

(12)

Cameron, Circus factions, blues and greens at Rome and Byzantium, p. 230

وقد شهدت هذه المدن العديد من حوادث الشغب ، التى عادة ما كانت تبدأ بين أنصار الفرق المتسابقة ، ثم تمتد لتشمل المدينة كلها ، معبرة دائماً عن سخط الأهالى هنا أو هناك ، غالباً على السياسة الاقتصادية أو العقيدية التى تتبعها الحكومة البيزنطية ازاءهم . وكان من أشهر ما جرى فى هذا الشأن ، ما شهدته كل من أنطاكية وسالونيك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥) . وكان شغب سالونيك بصفة خاصة أخطرها على الإطلاق ، لما تبعه من وقوع المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها على أقل التقديرات عند المعاصرين ، سبعة آلاف شخص . عن هذه الأحداث راجع :

SOZOM. hist. eccl. VII 23-25; THEOD. hist. eccl. V 17, 19.

ألوان التسلية الى قلوب جمهور النظارة فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الامبراطورية ، وأكثرها متعة لهم موائمة ، حتى أنه كان من الأمور الطبيعية التفاضى عن الجوانب اللا أخلاقية فى طبائع المتسابقين ، من أجل الاعجاب بهذا اللاعب أو ذاك ، تشهد على ذلك حادثة سالونيك الشهيرة فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى (١٣) .

ولما كان كل شوط من أشواط السباق الأربعة والعشرين ، يضم أربعة لاعبين ، فقد ميز كل منهم نفسه بلون معين ، تمثلت فى الأبيض والأحمر والأخضر والأزرق ، وبمرور الزمن واشتداد حمى التنافس بين هذه الفرق ، قفز الى الصفوف الأولى فريقا الزرق والخضر ، وذاعت شهرتهما على فريقى البيض والحر ، ولا يعنى هذا اندثار الفريقين الأخيرين ، أو تبعية أو اندماج الحر فى الخضر ، والبيض فى الزرق ،

وراجع أيضا :

Veyonis, Byzantine circus factions and Islamic futuwa organizations, pp. 49-51.

حيث يعطينا أسماء كثير من المدن التى شهدت مثل هذا الشغب فى القرنين السادس وأوائل السابع ، مثل مدن آسيا الصغرى والقدس وقيسارية فلسطين وإفاميا وأنطاكية والزها وطربوس وسلوقية . راجع أيضا :

THEOPH. Chron. I, pp. 256-257

(١٣) تعود أحداث سالونيك — كما تصورها المصادر — الى وجود خلافة آثمة بين أحد المتسابقين وواحد من غلمان بوثرىك Buthericus الحاكم الجرمانى للمدينة ، والذي أمر بالقبض على اللاعب الداعر ، الا أن الجمهور طالب بالافراج عن لاعبه الأثير ، بغض النظر عن أخلاقياته ، فما رفض بوثرىك الاستجابة لمطالبهم ، ذبحوه ! مما دفع الامبراطور ثيودوسيوس الى انزال العقاب الصارم بأهالى المدينة .

راجع تفاصيل هذه الأحداث ، والظروف التى أحاطت بها ، ومغزى موقف الامبراطور منها ، وما ترتب على هذه الحادثة من صراع بين الدولة والكنيسة ، فى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل السادس .

كما يعتقد بعض المؤرخين^(١٤) ، بل ظلت الألوان الأربعة تتنافس في الهيدروم ، وإن كانت الشهرة قد أصبحت من نصيب فريقى الزرق والخضر ومن ثم انقسم الناس فى العاصمة الإمبراطورية ، وكذا المدن الكبرى ، بين هذين الفريقين . وترك التنافس الذى كان قائما بين الزرق والخضر فى المضمار ، بصماته الواضحة على مواقف المشجعين وحماستهم داخل الهيدروم فى المدرجات التى خصصت لأنصار هذا الفريق أو ذاك على جانبي المقصورة الإمبراطورية^(١٥) ، بصورة اتسمت بالعصبية الكاملة التى وصلت الى حد الهوس ، وطبعت العلاقات بين هؤلاء وأولئك فى الحياة العامة ، بقدر من العداء ، الذى بلغ فى كثير من الأحيان حد الصراع والاقتتال فى الشوارع ، وهو ما تفيض به صفحات المصادر التاريخية المعاصرة^(١٦) . ومن هنا يصبح من الضروري ، عند الحديث عن وقائع الشعب فى العاصمة أو غيرها من المدن ، التفرقة بين الفرق

(١٤) Lindsay, Byzantium into Europe, p. 55 وللوقوف على

نشأة هذه الفرق الرياضية ، وانتماءاتها الطبقية ، واهتماماتها السياسية ، ونشاطاتها العسكرية ، واتجاهاتها العقيدية ، وصراعاتها ودورها الهام فى الحياة العامة فى الإمبراطورية ، راجع الدراسة الممتازة التى أعدها A. Cameron تحت عنوان :

Circus factions, blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976.

(١٥) — لم تكن مقاعد مشجعي الزرق والخضر فى الهيدروم تتسم بالثبات

على نحو دائم ، بل كثيرا ما تعرضت للتغيير والتبديل على يد هذا الإمبراطور أو ذاك ، تبعاً لميله لأحد الفريقين ، من ذلك ما أقدم عليه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) من جعل الخضر يحتلون المقاعد الواقعة من يسار المقصورة الإمبراطورية ، بدلا من الزرق ، تكريماً للخضر الذين كان هوى الإمبراطور معهم . انظر :

Lindsay, Byzantium, p. 118

(١٦) انظر :

IUS. Nov. XVII, 2, 13, 15; XXIV, 1, 3; XXX, 5.

PROGOC. hist. arc. VII

وأيضا :

EVAG. hist. eccl. IV, 32.

وكذلك :

الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ومشجعيهم الذين يقفون وراءهم
 يناصرونهم ويؤازرون^(١٧) . ومن ثم فان الحديث عن حزبى الزرق
 والخضر ، يعنى بصورة طبيعية أنصار هذا الفريق أو ذاك وزعماءهم .
 • أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani .

وقد لعبت المصالح الاقتصادية لهؤلاء الزعماء ، والمتعارضة فى
 كثير من الاحيان ، ان لم يكن كلها ، دورا كبيرا فى التباعد بين الحزبين ،
 بحيث فرضت على هؤلاء وأولئك انتماءا طبقيا معينا من الناحية الاجتماعية ،
 فالتجار والحرفيون والبحارة وأصحاب الحوانيت الكبيرة ، كانوا يشكلون
 الزعامة فى حزب الخضر ، بينما كان قادة حزب الزرق هم كبار ملاك
 الأراضى من الطبقة النبيلة أصحاب النفوذ والمناصب العليا فى الدولة .
 ولم يعد من المقبول الآن فى ضوء الدراسات الحديثة ، أن نذهب مع
 Monjlovic و Jarry فى تصنيف الحزبين الى فقراء Humiliores
 وأغنياء Potentiores^(١٨) ، ذلك أنه من الممكن أن نجد جماهير العامة فى
 الحزبين . أما الخلاف فيمكن أصلا فى الزعامتين^(١٩) ومحاولة كل منهما أن
 يحظى بتأييد الحكومة لمصالحه الخاصة ، وبشكل جوهري فيما يتعلق
 بمسألة الضرائب . . هل تثقل بها الأراضى . . أم المدن والتجارة ؟!

(١٧) راجع : دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص
 ١٠٨-١٠٩ وأيضا :

Cameron, Demes and factions, pp. 74-91.

Manjlovic, Le peuple de Constantinople, pp. 617-716.

(١٨) راجع :

Manjlovic, Le peuple de Constantinople, pp. 617-716.

وأيضا :

Jarry, Heresies et factions, p. 283.

(١٩) دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص ١١٤ وأيضا :
 Lindsay, Byzantium, p. 55; Cameron, Demes and factions, pp.

74-91.

ومما يلفت النظر أن عددا ليس بالقليل من الخبراء الماليين ، كانوا ينتمون الى المناطق الشرقية ، بحكم تفرسهم فى النواحي التجارية ، وباعتبار التجارة الشرقية بصفة رئيسية ، تمثل عصب الحياة الاقتصادية للامبراطورية البيزنطية . ولما كان زعماء الخضر من كبار التجار الذين ينتشرون فى الأقاليم الشرقية ، فقد وجدوا عوناً لهم فى كثير من الأحيان فى الادارة المالية فى العاصمة ، بينما وجد الزرق تأييداً لهم فى النبالة الرومانية المتمثلة فى أعضاء مجلس السناتو (٢٠) .

ولما كانت الامبراطورية قد غرقت حتى آذانها ، خلال القرون من الرابع الى السابع ، فى ذلك « الابلرنت » العقيدى ، على حد تعبير المؤرخ الكنىسى سقراط Socrates حول طبيعة المسيح ، وامتزاج الفلسفات اليونانية السائدة بالعقيدة المسيحية ، بحيث امتلأت الشوارع والأرقة بالمتحدثين فى غوامض الكلم ، كما يحدثنا اللاهوتى الكبادوكى الإثشير ، جريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus لا فرق فى ذلك بين الامبراطور ورجل الشارع ، مروراً بالثقفين والجهاز الادارى والجنود ، والملا من القوم وعامتهم ، كان طبيعياً اذن — والحالة هذه — أن نضيف الى وهيض الجمر بين الرماد ، ضراماً يؤجج نيران الخلافات الكامنة . ساعد على ذلك ، السياسة العقيدية التى انتهجتها حكومة القسطنطينية من اعتبار الارثوذكسية

(٢٠) كان مارينوس السورى هى المستشار المالى الأول للامبراطور أنسطاسيوس ، كما كان يوحنا الكبادوكى هو وزير مالية جوستنيان ، ومما تجدر الإشارة اليه فى هذا الصدد ، أنه فى عام ٤٩٨ ، أقدم الامبراطور أنسطاسيوس على احراق السجلات الخاصة بالضرائب ، والتى كانت فى معظمها واقعة على رعون التجار فى المناطق الشرقية . ويعطينا يوشع العمودى Joshua the stylite وصفاً رائعاً لمظاهر الفرح والسرور التى عمت أهالى مدينة الرها ، نتيجة لهذا الاجراء ، كمثال لما جرى فى كثير من مدن النصف الشرقى من الامبراطورية . انظر :

IOSH. Chron. p. 22.

MALALAS, Chron. p. 400

وأيضاً :

الخليقدونية ، الدين الصحيح ، وما عداها زيغ وهرطقة يجب القضاء عليها . ولما كانت جل ، ان لم يكن كل هذه الآراء المعارضة قادمة من الولايات الشرقية ، فقد أصبحت بالتالى معتقد التجار والحرفيين وأصحاب الحوانيت ، الذين يشكلون فى زعامتهم حزب الخضر .

على أن الأمر الذى تجدر الإشارة اليه ، أن هذا لا يعنى أن تكون الطبقة العليا والنبالة الرومانية فى القسطنطينية ، هى التى تمثل الأرثوذكسية الخليقدونية ، وأن الطبقتين الوسطى والدنيا وحدهما تؤمنان بالمونوفيزية ، وأن أصحاب هذه العقيدة يمثلون دائما المعارضة الحقيقية للسلطة الامبراطورية . فالقسطنطينية كانت تمتلئ بالعمال والموظفين والتجار والحرفيين ، الذين يعتمدون بصفة أساسية فى مصدر رزقهم على ما يمدون به القصر والكنيسة من منتجات معينة ، ومن ثم لم يكن الخضر فى المدينة — على حد تعبير Lindsay أقل تحمسا للمونوفيزية من الخضر فى أنطاكية مثلا^(٢١) . والذين ثاروا فى وجه الامبراطور أنسطاسيوس ، المعروف بميوله المونوفيزية الواضحة ، وتأييده للخضر ، كانوا هم الخضر والزرق معا !! ومع تحيز الامبراطورة ثيودورا ، زوج جوستينيان ، للخضر ، الا أن وقوفها الى جانب الزرق أحيانا كان يبدو واضحا^(٢٢) ، هذا اذا أخذنا بحديث المؤرخ بروكوبيوس دون مناقشة .

وفى دراسة رائعة أعدها A. Cameron^(٢٣) ، راح يناقش آراء المؤرخين التقليديين القائلة بأن الزرق هم الأرثوذكس وأن الخضر هم المنافزة . ويذكر أن الخلافات العقيدية لم تلعب أى دور فى المنافسة بين الفرق الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ويلقى باللوم على هذه الدراسات التى تؤكد بصورة قاطعة ، دون حساب أى عامل آخر ، على التوافق الكامل عند الأباطرة ، بين الميول العقائدية والانتماءات الحزبية

(21) Byzantium into Europe, p. 56.

(22) PROCOP. hist. arc. X, 16-18.

(23) Heresies and factions, pp. 92-120.

ويذكر أنه من بين خمسة عشر امبراطورا بين ثيودوسيوس الثانى ، وهرقل
Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) ، كان هناك أربعة يؤيدون الأخضر هم
ثيودوسيوس الثانى ، وزينون Zino (٤٧٤ - ٤٩١) وموريس
Mauriceus (٥٨٢ - ٦٠٢) وهرقل • وثلاثة يناصرون الزرق ،
هم مارقيان Marcianus (٤٥٠ - ٤٥٧) وجوستينيان Justinianus
(٥٢٧ - ٥٦٥) وفوقاس Prasiniani (٦٠٢ - ٦١٠) •

ليس هناك اذن ما يدعو الى الاصرار على التصنيف الطبقي أو
العقيدى فى تفسير حوادث الشعب التى كانت تجرى فى الهيدروم بين
أنصار الزرق Venetiani وأنصار الأخضر Prasiniani ما دامت
جموع هؤلاء الأنصار كانت توجد على اتساع طبقة العامة ، وأن الخلاف
كان واضحا بين زعماء مؤيدى الفريقين • فاذا ما حدث واتحدت جماهير
العامة ، كما جرى فى ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢ فى القسطنطينية ،
فان هذا يعنى أن الأمر لم يعد بيد زعماء الحزبين ، وأن الثورة لم تعد
موجهة فقط ضد الحكومة ، بل ضد الطبقة الحاكمة نفسها^(٢٤) ، بل قد يكون
ذلك ضد النظام القائم برمته •

والبيزنطى بما اشتهر عنه من ولع بالمناقشات العميقة ، حتى صارت
هذه تضرب مثلا لكل جدل عقيم ، وجد متنفسا متسعا له فى الهيدروم ،
ليس فقط فى مشاهدة السباق ، المحبب الى قلبه ، أو العروض المسرحية ،
أو ألعاب الحواة ، أو ألوان الرقص والغناء — كما أسلفنا ، بل فى
المناقشات التى كانت قد أصبحت شيئا تقليديا فى الهيدروم ، الذى كان
فى القسطنطينية لا يقل شأننا عن القصر المقدس أو كنيسة الحكمة المقدسة ،
أيا صوفيا • لقد كان — حسب تعبير شارل ديل — بؤرة الحياة

(٢٤) دكتور وسام عبد العزيز ، مجتمع القسطنطينية ١١٤-١١٥ وايضا

Lindsay, Byzantium, p. 56; Cameron, Circus factions, p. 278.

البيزنطية^(٢٥) ، بعد أن أصبح من الأمور العادية ، منذ زمن أوغسطس Augustus ، بل من الأمور الشائعة أن يقدم الناس الى الامبراطور التماساتهم فى الهدروم ، وكان على الامبراطور أن يجيب عليها • وما دامت المطالب تقدم بصورة عامة على هذا النحو ، أمام جمهور النظارة الكبير ، فلا بد أن تكون مطالب سياسية ، أو تتعلق بالنظام القائم • وهنا •• لا يوجد أدنى شك فى أنه كان على الامبراطور أن يواجه شعبه فى كل المسائل ، كبيرة كانت أم صغيرة^(٢٦) •

ولا ريب أن التحول السياسى الكبير الذى شهدته روما ، انتقالا من الجمهورية الى الامبراطورية ، قد ترك بصماته واضحة فى هذا المجال ، ذلك أن المناقشات الرائعة التى شهدتها قاعة مجلس السناتو ، خاصة خلال النصف الثانى من القرن الثانى ، وعلى امتداد القرن الأول قبل الميلاد ، راحت تتحسر تدريجيا بمقتضى السلطات التى خلعها السناتو على أوكتافيانوس Octavianus ، باعتباره منقذ الجمهورية الرومانية من أعدائها • ولما لم يكن خلفاء أوكتافيانوس أوغسطس بأقل منه حرصا على التمسك بهذه السلطات ، فقد تولى السناتو الى الظل ، وأمسى على حد قول مؤرخ القرن السادس ، بروكوبيوس ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن !! »^(٢٧) • وانتقلت اختصاصاته ، رغم أنف أعضائه ، وخاصة اختيار الامبراطور ، الى أيدي الجيش الذى أصبح يمثل مركز

Byzantium, Greatness and Decline, p. 108.

(٢٥)

ويقول فازيليف نقلا عن « أوسبىنسكى » كان المضمار هو المكان الوحيد للتعبير الحر عن رأى العام ، الذى كان يفرض نفسه أحيانا على الحكومة • انظر :

Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 155.

(26) Cameron, Circus factions, p. 162.

(27) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

القوة الرئيسية فى الامبراطورية^(٢٨) . وتجلى ذلك بصورة واضحة خلال أزمة القرن الثالث الميلادى ، التى امتدت ما بين عامى ٢٣٥-٢٨٤ للميلاد^(٢٩) ، حيث فقد السناتو أهميته تماما ، ولم يعد له أى دور فى الحياة السياسية فى الامبراطورية^(٣٠) ، وظل هذا حاله حتى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، عندما حاول أن يصحو من سباته الطويل ، ليشارك بقدر معين فيما يجرى على خشبة المسرح السياسى الرومانى فى القسطنطينية .

ومن هنا وجد أهالى القسطنطينية فى الهمدروم ، بفرقه الرياضية ، متنفسا طبيعيا يمارسون من خلاله مناقشاتهم ، ويعبرون عن آرائهم فى السياسة والاقتصاد ، أو بمعنى أكر دقة ، الضرائب والعقيدة . خاصة عندما راح دور الجيش فى اختيار الأباطرة يتقلص هو الآخر تدريجيا ، بتأثير النظام السياسى الذى وضعه الامبراطور قسطنطين فى ثلاثينيات

(٢٨) كان هذا واضحا منذ عام ٦٩ للميلاد ، وهى السنة الشمسية لابلاطرة الأربعة ، التى أعقبت وفاة الامبراطور نيرون Nero (٥٤-٦٨) ، وهى التى علمت الجيش أنه من الممكن أن يوجد الامبراطور فى أى مكان خارج روما . وإن كان العسكريون لحسن حظ الامبراطورية ، لم يستغلوا هذه الفرصة لمدة مائة عام تالية . حتى اذا كان عهد سبتيميوس سفروس Septimius Severus نصح ابنه عندما حضرته الوفاة . . قائلا : « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالآلآخرين » . راجع :

Jones, Constantine and the Canversion of Europe, P. 2.

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة . . . الجزء الثانى ، الفصل الأول .

(٣٠) راجع الفصل الممتاز الذى كتبه المؤرخ جونز A. H. M. Jones عن السناتو فى القسطنطينية وذلك فى كتابه .

Later Roman Empire, II, pp. 523-562.

القرن الرابع الميلادي (٣١) .

ولا شك أن الممارسة العملية التي باشرها الرومان ، سواء في روما القديمة ، أو سميتها الجديدة ، في الهيدروم ، ابتداء بعصر أوغسطس ، ومرورا بالأباطرة جابوس Gaius ونيرون Neron وكومودوس Commodus وغيرهم ، وصولا إلى انسطاسيوس Anastasius في أوائل القرن السادس الميلادي ، والتي تمثلت معظمها في الاحتجاج الصارخ في المضمار ، على التعسف في تقدير الضرائب وجبايتها ، والمناداة بضرورة اتباع سياسة معتدلة بين الأحزاب السياسية ، حتى وصل الأمر إلى المطالبة بخلع الامبراطور نفسه ، كما جرى لأنسطاسيوس وجوستينيان . كل هذا يعد دليلاً على الأهمية البالغة التي كان يدركها الناس والأباطرة لما يجري في الهيدروم (٣٢) .

في ضوء هذه الأمور يمكن أن ندرك ما جرى في عام ٥٣٢ على عصر الامبراطور جوستينيان . لكن مجريات الأحداث ووقائعها التي امتدت

(٣١) يذكر المؤرخ نورمان بينز N. Baynes أن اختيار الامبراطور كان يمر بأربعة أدوار ، الأول حين ينادى السناتو الروماني أو الجيش بوضع المرشح في وضع « دستوري » يجعله في مكان الامبراطور المنتظر ، والثاني ، موافقة الطرف الآخر وهو المرشح ، على ذلك الترشيح ، والثالث . . التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني « في الهيدروم » بحياة الامبراطور . أما الرابع فهو تتويجه على يد بطريك القسطنطينية ، باعتباره ممثلاً للناخبين لا الكنيسة . وقد جرى التقليد بذلك وان لم يكن أساسياً الالتزام بهذه الأدوار . راجع بيتز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، ص ٨٠ . وكان ليو الأول هو أول امبراطور يجري تتويجه عام ٤٥٧ على يد بطريك العاصمة .

(٣٢) يتضح هذا المعنى تماماً في عبارات المؤرخ اليهودي يوسفوس ، التي يصف بها الأحداث التي وقعت في يناير عام ٤١ للميلاد ، قيل مقتل الامبراطور جايوس بأسابيع قليلة . ويبين لنا من تاريخها المبكر ، مدى الدور الذي لعبه الهيدروم بصورة مطردة في الحياة السياسية في الامبراطورية . راجع :

Cameron, Circus factions, pp. 162-163.

ثمانية أيام (١١-١٨ يناير) وما صحبها ، وما لحق بها ، يجعلنا نرى فيها شيئاً يختلف عما شهدته القسطنطينية من قبل ومن بعد •

ففى يوم الأحد •• الحادى عشر من يناير ، جرى السباق فى الهبدروم ، كما جرى التقليد بذلك ، حتى اذا كانت الاستراحة التى أعقبت الشوط الثانى والعشرين ، واقترب السباق من نهايته ، ولم يبق منه الا شوطان ، ارتفع صوت من بين مقاعد الخضر يلتمس من الامبراطور ، الذى كان يتخذ مجلسه فى المقصورة Kathisma ، رفع الظلم الذى أوقعه بهم واحد من رجاله يدعى كالوبوديوس Calopodius وأنكر المتحدث باسم الامبراطور ذلك ، بل أنكر أن يكون هناك أحد فى حاشية الامبراطور يحمل هذا الاسم ! واتهم الخضر بأنهم لم يأتوا الى الهبدروم لمشاهدة السباق ، بل للتطاول على سلطان الحكومة • وناداهم بأنهم يهود •• سامريون •• مانويون ، ليزداد بذلك غضب الخضر ويزداد صياحهم ، فى أغرب حوار جرى بين حاكم ورعيته ، سجله لنا بقلمه المؤرخ ثيوفانس^(٣٣) Theophanes كاملا •• نقف منه على مدى ما يكتنه الخضر للسلطة الحاكمة من كراهية ، وذلك نتيجة لاتخاذها جانب الزرق ، حتى « اعتبر هؤلاء أنفسهم — بتعبير بروكوبيوس — فوق القانون ، واكتسبوا وضعا خاصا فوق الجموع بانتسابهم الى العرش » • ويضيف ومؤرخنا بروكوبيوس فى عبارات قاطعة : « ان تأييد جوستينيان لحزب الزرق جعل الدولة الرومانية تجثو على ركبتيهما لتخر راكعة كما لو كان قد هزها زلزال ، أو اجتاحتها طوفان ! كما لو كانت كل مدينة من مدائننا قد سقطت فى يد العدو • لقد انقلب كل أمر الى فوضى ، ولم يعد شئ على حاله ! لقد ديسست القوانين ، ولم يعد للنظام أى وجود »^(٣٤) •

وقد بلغ الحنق بالخضر فى الهبدروم مبلغه ، عندما وقف زعيمهم

(33) THEOPH. chron. I, pp. 278-282.

(34) PROCOP. hist. arc. VII.

يصيح قبالة المقصورة الامبراطورية ، : « ألا ليت ساباتيوس Sabbatius لم يولد أبدا » (٣٥) Utinam Sabbatius nusquam fuisset natus
والعبارة على هذا النحو موجهة الى الامبراطور مباشرة ، ذلك أن ساباتيوس هذا هو والد جوستينيان !! والابن •• هو بطرس ساباتيوس ، فلما قدم خاله جوستين Justinus الى العاصمة ، وترقى فى سلك المناصب حتى أصبح لدى الامبراطور أنسطاسيوس ، مكين أمين ، استدعى اليه ابن أخته بطرس هذا ، وخلع عليه لقبه الذى عرف به فى التاريخ •• جوستينيان ، نسبة الى الخال • وكانت هذه العبارة لطمة وجهت الى الامبراطور مباشرة ، اذ يتمنى أصحابها من خلالها ، لو لم يأت جوستينيان الى الحياة على الاطلاق !!

واستمر الحوار غنيفا بين المتحدث باسم الامبراطور ، وزعيم الخضر ، ليفصح عن مدى المعاناة والضجر الذى يستشعره الخضر من سياسة الحكومة تجاههم ، وتجاهلهم لمطالبهم ، ووقوفها بصورة سافرة الى جانب أعدائهم الزرق • وقد اتضح خلال الحوار ، عندما شارك زعماء الزرق فيه ، مؤيدين المتحدث باسم الامبراطور ، منادين على خصومهم باللقاب تحمل طابع الاتمهان والسخرية ، تصمهم بأنهم : « لصوص •• خونة •• يهود •• أعداء الله » (٣٦) •

لم يجد الخضر بدا وقد أحيط بهم ، الا أن يصيح زعيمهم ، ميمما وجهه شطر المقصورة الامبراطورية ، سوف نصمت أيها الامبراطور ، مادمت تريد ذلك ، لكنه صمت الكارهين لا المقتنعين ، اننا نفضل أن نكون يهودا ، على أن نكون من الزرق !! وأسفاه على عدالة أمست ميتنة ، يوارى جسدها التراب » !! ثم ولى الهيدروم دبره وغادره ، وتبعه على الفور جموع الخضر ، وكان هذا التصرف فى حد ذاته ، صفة قوية وجهت للامبراطور ، حيث تقضى التقاليد ألا يغادر أحد المضمار قبل انصراف الامبراطور ، معلنا نهاية السباق فى هذا اليوم •

(35) THEOPH. Chron. I, p. 281.

(36) Ibid, p. 282.

تملك الغضب على جوستينيان كل سبيل ، ازاء هذه الالهانة التى لحقت به ، وانعكس هذا فى الاجراءات الصارمة التى أقدم عليها وإلى المدينة يودايمون Eudaemon ، حيث ألقى القبض على سبعة من مشيى الشعب ، وتم على الفور ودون ابطاء ، قطع رءوس أربعة منهم ، وقضى على الثلاثة الآخرين بالاعدام شنقا ، واقتيدوا الى ساحة الاعدام ، وعلقوا على المشانق •• لكن يبدو أن الحبال كانت قد بليت ، فسقط اثنان منهم على الأرض أحياء ، وفشلت محاولة أخرى لتنفيذ حكم الاعدام من جديد • وكان هذا يعنى حسب التقاليد ، أن يحظى الرجلان بالعفو • ولم تغلح محاولات الوالى لاعادة تجربة الشنق من جديد ، ازاء الهياج العام من جانب الجموع التى اكتظت بها الساحة ، وازاء تدخل رهبان دير القديس كونون Conon الذين اقتحموا المكان واصطحبوا الرجلين الى كنيسة سان لورنس St. Laurentius ، فلم يسع الوالى إلا أن يأمر جنوده بحصار الكنيسة (٣٧) •

ويعتقد كثير من الباحثين الذين تصدوا لمعالجة هذه الأحداث ، أن الصدفة وحدها لعبت دورا كبيرا فى أن يكون أحد الرجلين اللذين نجيا من الاعدام ، منتميا الى حزب الزرق والآخر الى حزب الخضر ، وأن وإلى المدينة الصارم يودايمون ، قد ألقى القبض على هؤلاء السبعة اعتباطا ، دون النظر الى هوياتهم ! وأن « الصدفة » هذه هى التى قربت بين الفريقين ، فأشعلت تلك الثورة المدمرة فى القسطنطينية ، أو بتعبير أدق « البدايات الأولى لثورة عارمة • غير أننا لا يمكننا أن نقبل هكذا دور « الصدفة » وحدها ، وترتب عليها أحداثا جساما كتلك التى شهدتها المدينة ما بين الحادى عشر والثامن عشر من يناير عام ٥٣٢ ، وكادت تؤدى بالنظام الحاكم كله •

فالؤرخ القيسارى بروكوبيوس ، الذى ذكر لنا فى « تاريخه السرى » أن الامبراطور جوستينيان ، قد أخذ جانب الزرق ، وترث لهم

الحبل على الغارب ، فعاثوا فى الامبراطورية فسادا (٣٨) » كما لو كان قد هزها الزلزال ، أو اجتاحتها الطوفان » ، هو نفسه الذى يذكر ، وفى الموضع نفسه ، أن أنصار الزرق قد ميزوا أنفسهم بسحنه وأردية معينة بحيث أصبحوا يشبهون الى حد كبير ، قبائل الهون Hunni الاسيوية ، التى اكتسحت الامبراطورية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين (٣٩) . ومن ثم فلا مجال هنا « للصدفة » فى القبض على رجل من الزرق ، الى جانب من تم القبض عليهم من الخضر . وبروكوبيوس نفسه أيضا ، هو الذى نعرف من حديثه ، أن جوستينيان وزوجه ثيودورا ، قد اتبعوا سياسة وسطا بين الحزبين (٤٠) ، ذلك أن الامبراطور اذا كان قد اعتمد فى بداية عهده على مناصرة الزرق ، ليضمن تأييدهم ، فان سياسته قد سادت من بعد ، كما تدلنا الأحداث ، على اقرار التوازن بين الزرق والخضر ، امتدادا للسياسة التى اتبعها من قبل خاله جوستين (٤١) . كما أن التشريعات التى أصدرها الامبراطور خلال السنوات الخمس الأولى من عهده ، تعطينا فكرة واضحة عن السياسة التى سوف يتبعها جوستينيان ، فى ادارة شئون الامبراطورية ، والتى تهدف فى جوهرها ، الى فرض قبضته القوية على الدولة . ولذا . . فان ما فعله يودايمون لم يكن وليد « الصدفة » ، بل كان تنفيذا لرغبات الامبراطور ، وتمشيا مع السياسة العامة التى وضعها جوستينيان ، والا فبم نفس انزال العقاب الصارم بالفريقين معا ؟! ورفض الامبراطور ملتصم الزرق والخضر بالافراج عن الرجلين والعفو عنهما ؟! وقبل هذا وذاك . . كيف يمكن تفسير اتحاد الحزبين معا فى اليوم التالى مباشرة لهذه الواقعة ، واستمرار الوفاق

(٣٨) لقي كاللينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا حتفه ، لاقدامه على اعدام اثنين من القتلة ومثيرى الشغب فى اقليمه ، ينتميان الى حزب الزرق . انظر :

PROCOP. hist. arc. XVII; EVAG. hist. eccl. IV 32.

(39) PROCOP hist arc. VII 8-14.

(40) Ibid. X, 16-18.

(41) THEOPH. Chron. pp. 256-257.

بينهما حتى اليوم الأخير للثورة؟! الى الحد الذي دفع المؤرخ بيوري^(٤٢) Bury ، الى القول باحتمال وجود تنسيق مسبق بين زعماء الفريقين •

انقضى يوم الاثنين ، الثانى عشر من يناير ، فى هدوء مشوب بالقلق كذلك الذى يسبق العاصفة ، ثم أعلن عن استئناف السباق فى اليوم التالى ، فى محاولة من جانب الامبراطور ، لتهدئة الأمور ، وحتى تبدو وقائع اليوم الأول ، الأحد ، أمرا عاديا ، كثيرا ما يحدث ، واتخذت الحكومة ، ممثلة من والى المدينة يودايمون ، الاجراءات الكفيلة بالتصدى لمثل هذا الشغب • ولم يكن الامبراطور يدرى أن الأمور سوف تسير على هذا النحو فالجنود يحاصرون كنيسة القديس لورانس ، وأنصار الفريقين فى المضمار يلحون على الامبراطور فى مقصورته ، أن يأمر باخلاء سبيل الرجلين ، وجوستينيان يصم أذنيه عن هذه الصيحات • • ويتساءل « باكر » Baker وفى تساؤله جانب كبير من الصحة • • هل كان من السهل على الامبراطور أن يفعل شيئا فى أمر رجلين نظر القضاء فى حالهما ؟ وهو يعلم أن استجابته لمطالب المجموع تعد اعتداء على العدالة وتدخل فيها لغير سبب مقبول^(٤٣) • ولم يكن جوستينيان راغبا فى ذلك ، بل هىء له أن الأمر قد أصبح بيديه ، بعد القبض على رعوس الفتنة ، وأنه بهذا الاجراء يؤدب الحزبين معا •

ومع اقتراب أشواط السباق من نهايتها ، صمت الناس عن توجيه أى شكايات للامبراطور بشأن الرجلين ، بعد أن يئسوا من رحمته ، ولم يعد يسمع الهتاف التقليدى بحياة الامبراطور ، بل ارتفع صوت المجموع يهتف بحياة « الزرق والخضر والرحماء »^(٤٤) ، ليعلن بذلك عن مولد الاتحاد بين الحزبين Prasinovenetai وانفجار الثورة الشعبية فى

(42) Later Roman Empire, II, p. 40.

(43) Baker, Justinian, p. 84.

(44) MALALAS, Chron. p. 474.

القسطنطينية ، حيث اندفع أنصار الإفريقيين الى المقر الرسمي لوالى المدينة ، وطالبوا من جديد باطلاق سراح الرجلين ، فلما لم يجدوا سميعا لهم ولا مجيبا ، هاجموا المبنى وأخلوا سبيل من به من المسجونين ، وأشعلوا فيه النيران ليلقى الموظفون بداخله مصرعهم ، ولتتمتد النيران الى المباني الحكومية المجاورة^(٤٥) ، ولتلتهم فى طريق سعيها المدخل الرئيسى للقصر الامبراطورى ، وحماما تزيوكسيوس Zeuxippus ومبنى مجلس السناتو وكنيسة أيا صوفيا^(٤٦) . وانتق الثائرون على اتخاذ كلمة Nika « النصر » شعارا لهم ، يتعارفن به فيما بينهم^(٤٧) .

وهن الطريف أن الامبراطور أمر باستئناف السباق فى اليوم التالى، الاربعاء الرابع عشر من يناير ! ، كأن شيئا لم يكن ، رغم أنه لم يكن بغافل عن خطورة الموقف فى العاصمة ، التى أكلت النيران أهم وأفخم مبانيها . ولعل جوستينيان كان يريد أن يظل حتى آخر لحظة متمالكا لنفسه ، باديا أمام الجميع وكأن الأمور مازالت ملك يمينه . وكان من الممكن أن ينجح جوستينيان فى تأكيد تصوره هذا ، لو أن مجريات الأحداث جاءت كما اعتادتها القسطنطينية من قبل مرارا ، وما شهدته من بعد على امتداد تاريخها . لكن الأمور أفلتت الآن من أيدي زعماء الحزبين الزرق والخض ، ولم تعد الأحداث مجرد شغب فى المضمار تعداه الى الشوارع . بل أصبحت تمثل ثورة حقيقية ، تمثلت فى مطالب الثائرين الذين تقدموا للامبراطور يطلبون اليه عزل والى المدينة يواديمون ، والنائب الامبراطور والمستشار المالى يوحنا الكبادوكى ، والمحامى والفقيه تريونيان .

وقد يكون من المنطقى مع الأحداث ، المطالبة بعزل يواديمون والى الصارم ، باعتباره السبب الرئيسى فى اثاره هياج الزرق وانضمامهم الى

(45) PROCOP. bel. Pers. XXIV.

(46) Id.

ZONAO. epit. XIV, 6.

وايضا :

(47) Id.

أعدائهم الخضر ، وجريا على سياسة الزرق فى التخلص ممن يقفون حجر
عثرة فى سبيل اطلاق أيديهم فى العبث بالأمن العام ، كما جرى مع
كالينييكوس Callinicus حاكم كيليكيا^(٤٨) . أما أن يضاف اليه
يوحنا الكبادوكى وتربونيان ، فهذا هو الذى يضع أمام الأذهان علامة
استفهام كبيرة ، سوف نعود الى بحثها ، بعد أن نعيش مع الثورة وقائعها .

تيقن لدى جوستينيان خطورة الموقف الآن تماما ، وتردى الأحوال
فى العاصمة ، وعجز جهازه الادارى عن مواجهة هذه الاضطرابات التى
راحت تردد تفاقمها ، وأمل فى أن تجد استجابته لمطالب الثائرين ، منفذا
للخروج من هذه الأزمة ، ولو الى حين ، خاصة بعد أن جاءت التقارير التى
كان حريصا على الاطلاع عليها بنفسه ، تفيد بأن المعتدلين الذين أبدوا
تحفظهم ازاء هذه الأحداث حتى الآن ، قد أظهروا عداؤهم علانية تجاه
الحكومة ، بينما أثر آخرون ممن كان يؤمل وقوفهم الى جانبه ، الهروب
بأنفسهم عبر البسفور الى الشاطئ الآسيوى المقابل ، ووجهت الدعوة
من جانب زعماء العامة لعقد اجتماع فى ساحة قسطنطين ، أيدهم فى
تلك الدعوة عدد من الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو ،
حيث جرت مناقشة وتقييم للموقف ، وتمت الموافقة فى هذا الاجتماع
على خلع الطاعة للحكومة ، بل تطور الأمر الى الاقتراح بعزل جوستينيان
واعلان بروبوس Probus أحد أبناء أخى أنسطاسيوس ،
امبراطورا^(٤٩) وقد وضع هذا الاقتراح على الفور موضع التنفيذ ، فاتجهت
الاجموع الى دار بروبوس لرفعه مكانا عليا ، غير أن الرجل أثر السلامة ،
وفضل المهرب على المنصب فجراه العامة على ذلك بأن قدموا داره
للنيران قربانا !

لم يتردد جوستينيان لحظ ثقى الاقدام على عزل الرجال الثلاثة ،
كى يهدى من ثائرة الثائرين ، غير أن ذلك كله لم يجد نفعا ، ورغم أنه

(٤٨) راجع حاشية رقم ٣٨ .

(49) CHRON. PASCH. an. 532.

عين البطريق غوقاس Phocas نائباً امبراطوريا بدلا من يوحنا الكبادوكى ، وباسيليديس Basilides فى منصب الكويستور ، ورغم أن الرجلين مشهود لهما بالكفاءة والاعتدال والنزاهة ، الا أن هذا التعيين لم يغن — حسب تعبير بروكوبيوس — عن الامبراطور شيئا⁽⁵⁰⁾ ، اذ يبدو أن الامبراطور لم يفتن الى محاولة التأثير اعلان بروبوس امبراطورا ، وأن التنازلات التى قدمها ، لابد أن تأتى بمزيد من التنازلات. لكن الذى لا شك فيه أن التحدى أصبح سافرا بين الحكومة والثائرين ، وراحت تتكشف رويدا رويدا نيات زعماء الثائرين الآن ، والذين لم يعودوا هم زعماء حزبى الزرق والخضر ، بل غدوا من « الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو » ، وآمن جوستينيان مؤخرا أن سبل السلام لم تعد تفلح مع أناس يطلبونه شخصا ، ووضع الرجل — كما يقول باكر⁽⁵¹⁾ مشروعاته وطموحه فى كفة ، والثائرين فى كفة أخرى . . . وراح يتساءل ان كانت هذه الآمال تستحق أن يحارب من أجلها ؟ هل تستحق أن يدافع عنها بالعنف والدماء ؟ هل كانت أهدافه خيرة الى الحد الذى يمكن أن يسحق فى سبيلها العديد من الرجال ؟

مما لا ريب فيه أن جوستينيان كان يعتقد اعتقادا جازما فى خيرية مشروعاته الطموحة ، لصالح دولته ، لذا صمم على اخماد الثورة بالقوة . فأصدر أوامره الى قائده بليزارىوس Blisarius بالقضاء على الثائرين وأشرك معه أيضا القائد موندوس Mundus بقوات من القوط والهيرولين ، وشهدت العاصمة خلال الأيام الثلاثة التالية ، الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر من يناير ، حربا أهلية طاحنة ، بين قوات بازاريوس وموندوس من ناحية ، والثائرين من ناحية أخرى . وازدادت الحرائق فى المدينة ، فأنت على كنيسة القديسة ايرين ومستشفى سامبسون ، وفشلت المحاولات التى بذلها رجال الأكليريوس للحيلولة

(50) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV.

(51) Baker, Justinian, p. 49.

دون اتساع نطاق هذه الحرب • وأيقن بليزارىوس أنه لن يستطيع الوصول الى نتيجة حاسمة فى هذا الصراع ، بعد أن أدرك أنه لا يحارب أنصار الزرق والإخضر فقط ، بل قوى عديدة مسلحة لم يكن يتوقع مواجهتها ، ومن ثم أثر الانسحاب من شوارع القسطنطينية ، والعودة ثانية للاحتباء بالقصر الامبراطورى ، فأُمسّت المدينة فى قبضة الثائرين (٥٣) •

وأمام هذه الفوضى ، راح جوستينيان يراجع حساباته من جديد وخاصة بعد أن خذله الحرس الامبراطورى Excubitors وأثر أن يظل على الحياد (٥٣) ، وانتابت الامبراطور حالة من الشك فيمن حوله ، وقر لديه أن هناك مؤامرة تحاك خيوطها على نطاق واسع من جانب قوى متعددة تضمّر له السوء (٥٤) ، ولما كان القصر الامبراطورى يحوى ضمن من لجأوا اليه هروبا من الفوضى ، عددا ليس بالقليل من أعضاء مجلس السناتو ، بالإضافة الى هيپاتيوس Hypatius وبومبى Pompeius ولدى أخ الامبراطر الأسبق أنسطاسيوس ، فقد خشى جوستينيان أن يكون هناك اتفاق سرى بين هؤلاء جميعا ، وزعماء الثائرين فى العاصمة ، ولم لا ، وقد أقدم الثائرون منذ ثلاثة أيام فقط على محاولة اعلان بروبوس امبراطورا بديلا ؟ ! ولذا فانه فى مساء يوم السبت ، السابع عشر من يناير ، استدعى اليه الأميرين ورجال السناتو المحتمين به ، وطلب اليهم مغادرة القصر الامبراطورى على وجه السرعة (٥٥) • وذهبت سدى توصلات هباتيوس وبومبى بالابقاء عليهما الى جوار الامبراطور ، حتى

(52) PROCOP. bel. Pers. I; XXIV; MALALAS, Chron. p. 475.

وايضا :

ZONAR. epit. XIV, 6; CHRON. PASCH. an. 532.

(53) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 45.

(54) MARC. COMES, an. 532.

(55) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 19.

لا ينتهز الثائرون هذه الفرصة ، وأوضحا للامبراطور خشيتهما من أن يكرهما العامة على اعتلاء أحدهما العرش ، لكن هذه التوسلات ما زادت الامبراطور الا شكوكا وايمانا بأنهما ضالعين فيما يجرى خارج القصر ، ومن ثم أصر على موقفه ، فامتثل الرجلان لأوامر الامبراطور^(٥٦) .

بهذه الخطوة ألقى الامبراطور جوستينيان فى أيدي أعدائه ، بورقة رابحة ، كان من الممكن أن تحقق لهم كسبا عظيما ، لو سارت الأمور كما خططوا لها ، فقد حدث ما تتبأ به الأميران • أما ما كان من أمر جوستينيان ، فقد ظهر فى الهبدروم مع مطلع صبيحة يوم الأحد الثامن عشر من يناير ، ليقدم للثائرين آخر محاولة فى جعبته لاسترضائهم ، فأعلن مسئوليته الكاملة عن كل ما حدث ، وأن عليه وحده تقع هذه الفوضى التى حلت بالعاصمة ، نتيجة لعدم استجابته فى البداية بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من المشنقة ، ثم أذاع فى الحضور أنه قد قرر عفوا عاما يشمل جميع من شاركوا فى هذه الاضطرابات^(٥٧) .

ويبدو أن جوستينيان كان يضع نصب عينيه ، ما حدث قبل ذلك فى نفس المكان ، بسنوات قليلة ، بين الامبراطور أنسطاسيوس وشعبه ، عندما وقف هذا الأخير فى المقصورة ، وخلع عبائه الأرجوانية ، بعد أن ثار الناس ضد سياسته الاقتصادية ، وأعلن فى حركة مسرحية أنه على استعداد للتنحى عن العرش اذا ما طلب اليه الجموع ذلك ، فما كان من هؤلاء الجموع الا أن هتفوا بحياة أنسطاسيوس^(٥٨) غير أن ما حدث فى عام ٥١١ ضد أنسطاسيوس ، كان يختلف جذريا — كما سنرى — عما يجرى سنة ٥٣٢ زمن جوستينيان • ومن ثم لم يهتف الناس فى الهبدروم بحياة جوستينيان كما فعلوا مع سلفه الأسبق ، بل راحوا يقذفونه بالحجارة ويسبونونه بأقذع الألفاظ « كذاب •• خائن •• حمار »!! فلم يجد أمامه الا أن ينسحب عائدا الى قصره !^(٥٩) .

(56) Ibid. 20-21.

(57) CHRON. PASCH. an. 532.

(58) MALALAS, Chron. p. 408.

(59) CHRON. PASCH. au. 532.

وفى الوقت نفسه ، تتناقل الشائرون خبر طرد هيباتئوس وبومبى من القصر الامبراطورى ، وعقد زعماء الشائرين من السناتو اجتماعا قرروا فيه مهاجمة الامبراطور فى قصره ، ولم يقيموا وزنا لنصائح أحد أقطابهم ، أوريجن Origenes الذى دعاهم الى التريث فى الأمر ، وأن المسألة تحتاج الى شىء من التعقل والحكمة ، وفى الوقت نفسه الصبر ، حتى يسقط القصر الامبراطورى بي أيديهم طواعية ودون عناء ، لأنه « اذا ما واجهنا العدو بصورة سارة ، أصبحت قضيتنا مغلقة ، متأرجحة ، وسوف نكون بذلك قد أقدمنا على مخاطرة غير محسوبة ، سوف يتقرر بمقتضاها كل شىء فى وقت قصير ، وعلينا عندئذ أن نخر راكمين أمام آلهة الحظ ، أو أن نلقى عليها اللوم ، فالأمور التى يصدر بشأنها قرارات سريعة غير مدروسة ، يكون مالها — كما هى القاعدة — الخضوع لضربات الحظ ! » (٦٠)

نكن أحدا من أعضاء السناتو المتحمسين للحصول على نتيجة سريعة لعملهم طوال هذه الأيام الماضية ، لم يضع لمشورة أوريجن • ويبدو أن أعضاء السناتو الذين أخرجوا من القصر الامبراطورى فى الليلة السابقة ، قد نقلوا الى زملائهم الحالة المتردية التى وصلت اليها الأمور داخل جدران القصر ، وحالة الهلع التى انتابت الجميع وعلى رأسهم الامبراطور ، خاصة بعد فشل بليزاريوس فى اخماد الثورة ، ورفض الحرس الامبراطورى المشاركة فى هذا الأمر •

وعلى الفور اتجه الزخوف وزعمائهم الى دار هيباتئوس ، واقتنذوه الى ساحة قسطنطين ، ومنها الى الهبدروم ، حيث نادوا به امبراطورا ، وأجلسوه فى المقصورة • وعبرت زوجه عن هذه اللحظة برؤية قانطلة عبوس ، ترجمتها فى كلمات نافذة قائلة : « انهم يسوقونه الى الموت لا الى العرش !! » وذهبت صرخاتها بالابقاء عليه فى داره بعيدا عن هذه الأحداث • • عبثا (٦١) •

(٦٠) راجع نص خطاب ، أوريجن فى

PRO COP. bel. Pers. I, XXIV, 26-30.

Ibid. 22-24

وايضا :

(61) ZONAR. epit. XIV, 6

لم يكن هيباتئوس من ذلك النوع من الرجال ، الذى يمكن أن يغدو بطلا ، أو أن يركب هذه الموجة العالية • ومهما يكن شعور من بداخل القصر ، فان هيباتئوس كان يسيطر عليه دائما شعور الاخفاق واليأس • لقد كان من أولئك النوع من الرجال الذين يعتقدون أن فرصتهم الوحيدة فى النجاح ، تتلخص فى عدم الافصاح عن موقفه ، حتى ولو كان النصر فى جانبه (٦٢) • لقد عاش منذ وفاة عمه أنسطاسوس ، فى كنف جوستين وجوستينيان ، راضيا قانعا بما قسمت له به عجلة المسرح السياسى فى العاصمة ، وظل حتى اللحظة الأخيرة محتما بالامبراطور داخل قصره ولم يخرج منه الا مطرودا عندما توجس جوستينيان فى نفسه منه خيفة • ولذا كان أول ما أقدم عليه هيباتئوس وهو يحتل المقصورة الامبراطورية ، أن كتب رسالة الى جوستينيان ، يوضح له فيها موقفه ، وطلب اليه سرعة مهاجمة الهبدروم ، ليأخذ الثأرين على غرة ، وهم فى نشوة النصر بتتويج الامبراطور الجديد (٦٣) •

غير أن هذه الرسالة لم يقدر لها أن تصل الى جوستينيان أبدا ، ذلك أن افرايم Ephraim أحد المقربين الى هيباتئوس ، والذى حمل الرسالة ليسلمها الى جوستينيان ، التقى فى طريقه عبر الدهليز الذى يصل بين القصر الامبراطورى والمقصورة ، بتوماس Thomas الطبيب الخاص بـ جوستينيان ، فأخبره هذا أن الامبراطور وحاشيته قد أطلقوا سيقانهم للريح مولين الأدبار (٦٤) ، فعاد افرايم مسرعا الى سيده يحمل اليه هذه الأنباء ، التى لابد سوف تتلج صدره وتعطيه الأمان ، باعتباره قد غدا امبراطورا حقا • ولم يكلف افرايم نفسه عناء التيقن من صحة هذا الخبر •

ويبدو أن توماس ، قد حضر الجانب الأول من الاجتماع الذى دعا اليه جوستينيان لبحث الأمر ، بعد الاهانة التى لحقت به فى الهبدروم

(62) Baker, Justinian, p. 24.

(63) CHRON. PASCH. an. 532.

صبيحة هذا اليوم ، وبعد ما صك مسامحه من تتويج هيباتيروس امبراطورا ، وقد أيد الحاضرون جميعا وفى مقدمتهم يوحنا الكبادوكى ، فكرة الهروب الى الشاطئ الاسيوى للبسفور ، ليكونوا فى مأمن من الهجوم المتوقع على القصر ، ولم يبد العسكريون وعلى رأسهم بليزارىوس اعتراضا على هذا الرأى ، بعد أن ثبت فشل المواجهة العسكرية ، ولأن المشكلة الرئيسية كانت تتلخص فى عدم وجود قوات كافية للتصدى للثوار ، حيث أن الجيش كان يربط على الجبهة الفارسية . ولا شك أن توماس قد انسحب من الاجتماع عند هذا الحد ، ونقل الى افرام هذه الصورة ، قبل أن تخف ثيودورا الى مكان المجلس ، لتدلى برأىها ، ولتقلب هذه الفكرة رأسا على عقب .

تفرست ثيودورا وجوه الحاضرين ، وقد تلبدت سماء الأمل بغيوم القنوط ، وراحت بكل الحزم تقول : « فى مثل هذه الأزمة والتي نواجهها . . ليس لدينا الوقت لمناقشة ما اذا كان مكان المرأة الالتزام بالقاعدة القديمة التى تقضى بالصمت اذا ما تحدث الرجال . . أم لا . . وهل من الواجب أن تظل مطاطئة الرأس ، خائفة خجول فى حضور السادة . . أم لا ؟ ! علينا إذن أن نعمل بسرعة . وانى لأرى أن هذا الوقت بالذات ليس مناسبا للفرار ، حتى لو كان فى ذلك الأمان كه . . فليس هناك شئ مضمون . وكلنا يعلم أن كل مولود ، لابد له من يوم يودع فيه دنياه ، لكن ليس من اللائق على من غدا امبراطورا ، أن يمسى هاربا . اننى لن أتخلى أبدا عن هذه العباءة الأرجوانية ، ولن أعيش ذلك اليوم الذى يخاطبنى فيه من ياقنى بغير لقب الامبراطورة . . والآن . . أى مليكى . . اذا شئت أن تنجو بنفسك ، فليس ذلك صعبا ، ولا شئ يمنعك . فالمال وفير ، والبحر طيع وسيع ، والسفين على الشيطان كثير . أما أنا . . فانى أؤثر أن أستمسك بالقول القديم : الأرجوان خير الأكفان » (٦٥) .

(64) Id.

(65) POOCOP. bel. Pers., I, XXIV, 32-37.

كان لهذه الكلمات فعل السحر فى نفوس الحاضرين جميعاً وفى مقدمتهم جوستينيان ، الذى كان قد أسند ظهوره بعد تجربة الصباح فى الهبدروم الى جدار اليأس ، واستدعى اليه بمشورة زوجته ، الخصى نارسس Narses ودفع اليه مبلغاً من المال ، وأسر اليه أمراً أن يقصد زعماء الزرق ، مذكراً اياهم بما كان من موقف جوستينيان معهم منذ بداية عهده ، وأن يقدم اليهم هذه الأموال « رشوة » دليلاً على حسن نيات الامبراطور تجاههم ، لقاء التخلّى عن مناصرة الخضر ، وفض هذا التحالف . ولقيت هذه المناورة استجابة من الزرق ، الذين انسحبوا من الهبدروم تاركين الخضر يواجهون المصير المحتوم وحدهم (٦٦) .

وصدرت الأوامر الى كل من بليزارىوس وموندوس ، بمهاجمة الثائرين فى الهبدروم ، وسط نشوتهم بفرحة الانتصار ، باعلان هيباتىوس امبراطوراً ، وقد حاول بليزارىوس الوصول مباشرة الى المقصورة الامبراطورية للقبض على هيباتيس ، فيوقع الذعر فى نفوس الثائرين ، غير أن محاولته باءت بالفشل ، ازاء موقف الحرس الامبراطورى المكلف بحراسة بوابات الدهليز الموصل بين القصر والمقصورة ، الذى رفض أن يسمح لبليزارىوس بالمرور (٦٧) . ومن ثم اضطر القائد أن يخرج من القصر بقواته لمهاجمة الهبدروم من الخارج . وقد نجحت قوات بليزارىوس وموندوس من القوط والهيروليين فى اقتحام الهبدروم ، بحيث أحيط بالثائرين فى داخله ، وجرت مذبحة مروعة ، أفاض المعاصرون فى وصف أحداثها ، وذهب ضحيتها على أقل التقديرات ، ثلاثون ألف رجل (٦٨) . وتم

(66) MALALAS. Chron. p. 476.

(67) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 44-45.

(٦٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 54 وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول أعداد القتلى الذين راحوا ضحية هذه المذبحة ، فيقدرهم زكريا المتليني بثمانين ألف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه جداً ، بينما زوناراس يراهه فيتحفظ فى القول عندما يذكر أنهم « تقريبا » خمسة وثلاثين ألفاً . ومن ثم اعتمدنا على رأى بروكوبيوس ، أقربهم جميعاً للأحداث ، وسكرتير بليزارىوس القائد الذى نجح فى سحق الثورة . راجع KACH. Chron. IX, 14 وايضا : ZONAR. epit. XIV, 6; MALALAS, Chron. p. 477; IOAN. LYD. de magist. III 26.

القاء القبض على كل من هيباتيوس وبومبي ، حيث سيقا الى الامبراطور فى اليوم التالى لهذا اليوم الحزين • ويبدو أن الامبراطور ، كما يظهر من حديث زكريا المتلىنى ، كان يميل الى العفو عن الأخوين ، بعد أن تفهم حقيقة موقفهما^(٦٩) ، خاصة وأن بومبي لم يشارك فى هذه الأحداث على الاطلاق ، ولم يكن له أى دور فيها ، بينما راح هيباتيوس يوضح لجوستينيان أن ارادته قد سلبت تماما ، أمام هياج الجموع الصاخبة التى رفعته الى العرش دون رغبة منه ، وأنه جىء به الى الهبدروم قسرا ، ودلل على ذلك بأمر الرسالة التى بعث بها اليه وهو فى المقصورة الامبراطورية^(٧٠) ، وهى التى لم تصل الامبراطور كما علمنا • غير أن ثيودورا التى احتلت الآن مكانة مرموقة بعد وقفها الشهيرة وكلماتها النافذة ، وبعد أن انتصح للجميع قوة عزميتها وسداد الرأى لديها ، أقنعت زوجها بأن من الحكمة الخلاص من الرجلين ، حتى لا يكونا دافعا لفتنة جديدة قد تظل برأسها • ومن ثم اقتيد الرجلان الى شاطئ البسفور حيث احتزت رأساهما وألقى بجثتيهما فى البحر^(٧١) •

أما ما كان من أمر أعضاء مجلس السناتو الذين شاركوا فى هذه الثورة ، فقد ألقى القبض على ثمانية عشر عضوا منهم ، وصودرت ممتلكاتهم ، وإن كانت هذه المصادرة لم تستمر طويلا ، بل تم اعلان العفو عنهم فيما بعد ، وأعيدت اليهم الممتلكات التى تمت مصادرتها^(٧٢) بعد أن قلمت أطافرهم ولم يعد يخشى بأسهم •

هكذا قضى على أخطر ثورة شهدتها القسطنطينية طوال تاريخها ، بجرأة ثيودورا ، على حد تعبير بيورى^(٧٣) Bury وولاء بليزارىوس

(69) KACH. Chron. IX, 14.

(70) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 55-56.

(71) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 57

ZACH, Chron. IX, 14.

(72) CHRON. PASCH. an. 532.

POOCOP. bel. Pers. I, XXIV, 27.

وايضاً :

(73) Bury, Later Roman Empire, II, p. 48.

وشجاعته ، ومكن جوستينيان لنفسه فى الأرض ، ليحكم بعد ذلك حكما مطلقا طيلة ثلاثة وثلاثين عاما آتية ، أقدم فيها على تنفيذ مشروعاته وآماله العريضة ، دون أن يلقى من بعد معارضة • على أن هذه الثورة تمثل نقطة تحول بارزة فى مختلف نواحي الحياة فى الامبراطورية البيزنطية ، ولنحاول الآن بهدوء ، بعد أن عايشنا حوادث العنف وتطوراتها ، أن نحلل وقائعها ، لنجد على صدق ما تذهب اليه ، من اعتبارها حجر الزاوية فى تثبيت دعائم نظام سياسى بعينه فى الامبراطورية ، وما ترتب على ذلك من تغيرات واسعة شملت جوانب الحياة العامة •

فعندما وضع بروكوبيوس كتابه الأول « عن الحرب الفارسية » De Bello Persico وصف هذه الثورة بأنها « عصيان مسلح وغير متوقع بين العامة فى القسطنطينية ، وان كانت قد أثبتت أنها فى غاية الخطورة ، كما أنها انتهت بأضرار بالغة للعامة والسناتو » (٧٤) ، وان كان يعزوا بداياتها الأولى التى وقعت فى الهيدروم ، الى « الروح المريضة » لدى أنصار فريقى الزرق والخضر (٧٥) • فلما دون بعد ذلك « مذكرات لم تنشر » أو ما اصطلح على تسميته بـ (بالتاريخ السرى) Historia Arcana ألقى بتبعة الأحداث كلها فوق رأس الامبراطور جوستينيان ، فكتب يقول : « عندما يكون الناس على ثقة بالمستقبل ، فانهم يصبحون على استعداد لتحمل آلام الحاضر ، أما اذا ما وقعوا تحت طائلة العسف والجور على يد رجال الحكومة ، فانهم يصبحون أكثر احساسا بالكرب والضيق مما يعانون ، ويسقطون فريسة اليأس القاتل الذى ينبىء أنه لا أمل مطلقا فى العدالة • ولقد خدع جوستينيان رعاياه وضلّهم ، ليس فقط برفضه الدائم مساعدة ضحايا هذه الأخطاء ، بل لأنه كان على استعداد تام كى يضع نفسه حاميا لهذا الفريق أو ذاك من أنصاره ، ولأنه أنفق أموالا طائلة على هؤلاء المتهورين الطائشين

(74) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 1.

(75) Ibid., 6.

واحتفظ بعدد من هؤلاء بطانة له وحاشية ، ورفع بعضهم الى أعلى المناصب » (٧٦) .

وبروكوبيوس يشير من طرف خفى ، الى ما أفصح عنه صراحة فى نفس الموضع من كتابه الأخير ، من تأييد جوستينيان لحزب الزرق ، و« عردة » هؤلاء فى القسطنطينية والأقاليم الشرقية من الامبراطورية ، استنادا الى تأييد الامبراطور لهم ، حتى « خرت الدولة على ركبتيها جاثية » بسوء فعالهم . ومع صدق ما يذهب اليه بروكوبيوس الى حد كبير ، فلا ننسى أن الرجل كان قيساريا ، وأن هواه لا بد أن يكون مع الاقاليم الشرقية ، التى أمست تحت سيادة جوستينيان ، تأتى فى المرتبة الثانية بعد ولايات الغرب الرومانى ، التى جعل الامبراطور من استردادها مبلغ همه ، على عكس ما كان قد غدا عليه النصف الشرقى للامبراطورية منذ عهد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث الميلادى وأوائل الرابع (٧٧) .

ويشير بروكوبيوس أيضا ، وان كان بوضوح كامل الى من رغبهم جوستينيان الى « أعلى المناصب » ، قاصدا بذلك يوحنا الكبادوكى ، النائب الامبراطورى والمستشار المالى لجوستينيان ، اذ يعتبره بروكوبيوس

(76) PROCOP. hist. arc. VII.

(٧٧) كانت هذه الصورة واضحة جدا فى اذهان كتاب القرن الرابع ، اعنى احتلال النصف الشرقى المرتبة الأولى ، فعندما وضع دقلديانوس نظام الحكومة الرباعية Tetrachia ليكون بديلا عن الفوضى السياسية والعسكرية التى أهلكت الامبراطورية ، فيما عرف بأزمة القرن الثالث ، احتفظ لنفسه بالمكانة الأولى باعتباره أوغسطس الشرق والامبراطور الاول ، ويأتى فى المرتبة الثانية أوغسطس الغرب ، ويحتل المرتبة الثالثة قيصر الشرق ، بينما المرتبة الرابعة من نصيب قيصر الغرب ، ولعل أروع وأصدق تعبير عن فهم المعاصرين وادراكهم لهذه الحال ، ما كتبه البلاغى الافريقى الشهير لاكتانتيوس ، يصف به الأوضاع ، عندما قبل قسطنطين التخلّى عن منصب أوغسطس الغرب الذى رفعه الجنود اليه بعد موت أبيه ، قبل منصب قيصر الغرب ، بناء على أوامر جاليريوس أوغسطس الشرق ، قال لاكتانتيوس : « لقد هبط قسطنطين بذلك من الدرجة الثانية الى الدرجة الرابعة » . انظر : LACT. mort. pers. 25 وللوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

آفة زمانه وكارثة عصره ، « بعيدا كل البعد عن الثقافة ، لم يفقه شيئا مطلقا مما تعلمه فى مراحل تعليمه الأولى ، لكنه على الرغم من ذلك أصبح الرجل الذى نعرفه . لقد كان عظيم الاقتدار فى أن يقرر ما يريد . وأن يجد المخرج والحل لكل صعب . استخدم مهاراته لتحقيق كل أغراضه . لم يكن يقيم اعتبارا لله ، ولا لأى انسان مهما كانت منزلته ، بل كثيرا ما كان على استعداد أن يحطم العديد من الرجال من أجل كسب يحققه ، ومن ثم فانه خلال فترة وجيزة جدا ، تمكن من أن يجمع حصيلة ضخمة من الأموال . لقد كان خراب كل المدن محور اهتمامه » (٧٨) .

ويتفق المؤرخون جميعا فى خلع مثل هذه الصفات على يوحنا الكبادوكى ، فهذا يوحنا الليدى Ioannes Lydus يذكر أنه استطاع أن يكسب جانب الامبراطور عندما وضع أمامه عددا من المشروعات ، تهدف كلها الى زيادة حصيلة الضرائب ، بحيث تتناسب مع الانفاق الضخم (٧٩) . أما زكريا المتلىنى فيصفه فى عبارات تكاد تتفق تماما مع ما يورده بروكوبيوس ويوحنا الليدى ، ويقول : « انه درج على تلغيق الاتهامات الى الناس باستخدام أساليب الخداع والمكر والدهاء ، فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وجمع أموالا ضخمة للخزانة الامبراطورية من كل الطبقات دون تمييز ، عليه القوم والحرفيين على السواء . لقد كان مسموع الكلمة فى القصر ، مخيفا لأى انسان ، ولم لا وقد كان من أشد المقربين والثقة الى الامبراطور » (٨٠) . ويعبر أحد المؤرخين

(٧٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 12-13 ويضيف : « لقد اندفع بكل قوة فى حياة دنسة دنيئة لوغد مخمور ، فعلى امتداد كل يوم حتى موعد الغذاء ، تصبح مهمته سلب أموال وثروات الرعية ، بينما يشغل بقية يومه فى الشراب والدعارة . ولم يكن قادرا بالمرّة على كبح جماح نفسه ، فهو يأكل حتى يتقيأ ، وهو على استعداد دائما لسلب الأموال ، وأكثر استعدادا للحصول عليها واتفاقتها ! »

Ibid. 14-15.

(79) IOAN. LYD. de magist. III 27-58.

(80) ZACH. Chron. IX, 14.

الحديثين^(٨١) عن شخصية يوحنا الكبادوكى ، بعبارة بليغة يوجز فيها كل ما قاله السابقون ، بقوله : « لقد كان همه أن يملأ بالأموال حفرة لا قاع لها !! » .

ومما لا ريب فيه أن هذه الاتهامات الموجهة الى النائب الامبراطورى ، وباعتباره « أشد المقربين والثقة الى الامبراطور » ، تنسحب تلقائيا على شخص جوستينيان هو الآخر ، الذى كان حسب تعبير بروكوبيوس « ينتهز أية فرصة ليغتصب ما بيد رعاياه من الأموال ، بل كان على استعداد لأن يبيع القانون لقاء مبلغ من الذهب ! »^(٨٢) . على حين يصفه افاجريوس Evagrius بأنه كان فى حبه للمال نهما لا يشبع ، يشتهى كل ما تملكه رعيته الى الحد الذى باعهم فيه جملة واحدة لموظفيه وجباة الضرائب فى دولته^(٨٣) .

والحقيقة أن جوستينيان وجد فى يوحنا الكبادوكى ضالته التى ينشدها ، فالامبراطور يضع نصب عينيه تحقيق عدد من المشروعات الضخمة ، أتى فى مقدمتها استرداد ولايات الغرب الامبراطورى التى ضاعت من جراء الغزو الجرماني ، وأمسّت ممالك جرمانية . وكان جوستينيان امبراطورا روماني القلب والقالب ، يؤمن ايمانا كاملا بالامبراطورية الرومانية الواحدة ، العالمية ، ويوقن تماما أن روما البسفور لا تغنى مطلقا عن روما التبير ، وأفصح عن ذلك فى تشريعاته عندما راح يبدى حسرته الشديدة على تقلص مساحة الامبراطورية ، نتيجة السياسة الضعيفة التى انتهجها الأباطرة الأسلاف^(٨٤) . وأعلن صراحة عن عزمه على استعادة ولايات الغرب الروماني الضائعة ، بقوله : « لدينا

(81) Baker, Justinian, p. 79.

(82) PROCOP. hist. arc. XIV.

(83) EVAG. hist. eccl. IV, 30.

(84) IUS. Nov. XXV, 2; Nov. XXX, 71.

كبير أمل فى الله بأن يأذن لنا فى استرداد الأراضى الامبراطورية الرومانية القديمة ، التى من جراء التراخى ضاعت » (٨٥) .

بناء على هذا الفكر لدى جوستينيان ، عرض على مستشاريه المالىين والعسكريين ، فى أخريات عام ٥٣١ مشروع القيام بحملة عسكرية الى ولاية أفريقيا التى يحتلها الوندال . ورغم أن هذه الفكرة لقيت المعارضة الكاملة من جانب هؤلاء المستشارين ، تأسيسا على الفشل الذى أصاب الحملة التى قادها باسيليسكوس Basiliscus على عهد الامبراطور ايو الأول ضد الوندال عام ٤٦٨ . الا أن جوستينيان أعرض عن آراء من جمعهم ليشاورهم فى الأمر ، وصمم على انقاذ هذه الحملة ، خاصة وأنه كان قد ضمن اقرار السلام ولو بهدنة مؤقتة عقدها مع الفرس ، قبل بمقتضاها أن يدفع مبلغا ضخما من الذهب ، لشراء سكوت فارس (٨٦) . وازاء هذه الجزية التى تقررت لفارس ، والأموال المطلوب توفيرها للأعداد للحملة الافريقية ، كان على يوحنا الكبادوكى أن يوفر للامبراطور كل ما يطلبه ، ولم يدخر الرجل فى ذلك وسعا ، ولم يستثن من ذلك — كما يقول زكريا المتلىنى — كبار الملاك أو صغار الحرفيين .

وليس أصدق فى التعبير عن شدة حاجة الامبراطور الى الأموال بصورة عامة ، من التشريعات التى أصدرها جوستينيان نفسه ، متعلقة بالضرائب . فما هو يوجه تعليماته الى حكام الولايات : « فلتكن جباية الضرائب هى شغلكم الشاغل قبل أى عمل آخر » ، ثم يتوجه بحديثه الى رعيته : « ألا فلتعلموا أن مشروعاتنا الضخمة وآمالنا العراض ، لن يتم انجازها دون الأموال ، ألا فلتدفعوا الضرائب اذن دون ابطاء » (٨٧) . وتضمن القسم الذى كان يؤديه حاكم الاقليم النص على بذل كل الجهد لجباية الضرائب : « ... وأقسم أن أبذل قصارى جهدى فى متابعة تحصيل الضرائب ، وأن أطالب المتراخين فى السداد بكل شدة ، وأن أكون

(85) IUS. Nov. XXX, 11.

(86) PROCOP. bel. Pers. I, XXII.

(87) IUS. Nov. VII, 8, 10; Nov. XVIII, 1; Nov. XXX, 2.

معهم ضارماً ، وأن لا أتردد فى استخدام القسوة اذا ما تطلب الأمر » (٨٨)
 بل ان جوستينيان ذهب أبعد من ذلك عندما حذر الممولين من تقديم
 شكاياتهم ضد حكام الولايات ، اذا ما اتبع هؤلاء معهم وسائل العنف عند
 تحصيل الضرائب^(٨٩) وهددهم بأشد أنواع العقاب ، اذا ما انتهزوا المهلة
 المحددة له لرحيله عن الاقليم لابقاع الأذى به^(٩٠) . وراح يلقي باللائمة
 على الأباطرة الأسلاف الذين تهاونوا فى حقوق الخزانة الامبراطورية ،
 حتى انخفض دخل الدولة من الضرائب حسب تقديره الى الثلث وربما
 الربع^(٩١) .

وكان طبيعياً أن يقدم جوستينيان فى سبيل زيادة دخل الخزانة
 على فرض ضرائب جديدة ، منها على سبيل المثال تلك التى فرضت على
 أصحاب الحوانيت فى القسطنطينية ، والتى قدرت بحوالى خمسين فى
 المائة من صافى الأرباح السنوية لهذه الحوانيت ، وذلك فى مقابل اطلاق
 يد التجار فى عدم الالتزام بالتسعيرة الجبرية ، مما أدى الى ارتفاع
 الأسعار الى ثلاثة أمثال السعر العادى . وأوقع الأضرار بالكثيرين ، وأطلق
 يد موظفى الحكومة للعبث كيف شاءوا بهذه الحوانيت لتقدير قيمة
 « النصف » كيف شاءوا^(٩٢) . كما ابتدعت الادارة المالية تحت رشد يوحنا
 الكبادوكى ، ضريبة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، حملت تسمية غريبة ،
 اذ عرفت بضريبة « الهواء » أو « السماء » Aerikon من المحتمل
 أنها فرضت على الأبنية المرتفعة فى المدن الكبرى . وقد حققت هذه
 الضريبة المبتدعة ، دخلاً كبيراً للخزانة بلغ ثلاثة آلاف رطل من الذهب

(88) IUS. Nov. VIII, 3.

(89) IUS. Nov. VII, 10, Nov. XXVIII, 5.

(90) IUS. Nov. VIII, 10.

(91) IUS. Nov. VII præf.

(92) POOCOP. hist. arc. XX.

سنويا^(٩٣) . ولم ينج أصحاب السفن التجارية أيضا من مثل هذه الأمور التى تدخل ضمن دائرة الابتزاز ، اذ كان عليهم دفع رسوم مالية كبيرة عند ارتحال سفنهم عن ميناء العاصمة ، أكرهم عليها موظفو الادارة المالية ابتغاء وجه الامبراطور^(٩٤) ، بحيث أصبح شعار العاملين فى الادارة الحكومية ، أو بتعبير بروكوبيوس نفسه ، أصبح طموحهم الوحيد ، أن يقنعوا الامبراطور بجدية ولائهم له ، عن طريق المزيد من الأموال والمزيد^(٩٥) .

وفى مقابل الجدية التى بلغت حد التعسف فى تقدير الضرائب وطرق جبايتها ، لم يتردد جوستينيان فى اتباع سياسة تقشفية ، لتوفير بعض الأموال التى تنفق فى وجوه عدها الامبراطور اسرافا واهدارا للاموال العامة . من ذلك اقدامه على إلغاء المنحة التى كانت تعطى الجنود مرة كل خمس سنوات ، على عهود من سبقه من الأباطرة ، ومقدارها خمسة صوليدي لكل جندي^(٩٦) ، كما أنه أبطل المكافأة التى كانت تصرف للعاملين فى الدولة عند نهاية الخدمة^(٩٧) . وأوقف صرف الاعانات والمعاشات التى كانت تعطى فيما سبق لاطباء ومعلمى أبناء النبلاء^(٩٨) ،

(٩٣) Ibid. XXI ويبدو ان هذه الضريبة قد ظهرت بعد ذلك فى عهود تالية متأخرة ، زمن ليو السادس الحكيم (٨٨٦—٩١٢) والكسيوس كومنينوس (١٠٨١—١١١٨) . وقد دارت حولها مناقشات عديدة . راجع :

Bury, Later Roman Empire, II p. 350, N. 4

(94) PROCOP. hist. arc. XXIV, XXV.

(95) Ibid. XXV.

(٩٦) Ibid. XXIV ويتشكك جونز فى اقوال بروكوبيوس فى هذا الصدد ، ويذكر أنه لم يكن من السهل أن يمر هذا الاجراء دون معارضة شديدة من جانب الجنود . انظر :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 284-285.

(97) PROCOP. hist. arc. XXIV.

(98) Ibid. XXVI.

وحوّل جزءاً مما كان يحصل عليه المحامون ليصب في الخزانة الإمبراطورية ، وذلك بالسماح للمتقاضين برفع دعاوهم أمام المحاكم مباشرة دون اللجوء إلى المحامين^(٩٩) . ومع التحفظ والحذر الشديدين ، الذين لابد أن يضعهما الباحث في اعتباره عند قراءة « التاريخ السري » لبروكوبيوس^(١٠٠) ، إلا أنه بالمقارنة مع تشريعات جوستنيان نفسه ، وما يذكره المؤرخون الآخرون أمثال يوحنا الليدي وافيغريوس وزكريا المتليني ويوشع العمودي ، وفي ضوء المشرعات العمرانية والتشريعية والحربية ، التي نفذها جوستنيان على امتداد عهده الطويل البالغ ثمانية وثلاثين عاماً ، لا نملك إلا القول إن الإمبراطور ووزيره الأثير يوحنا الكبادوكي ، قد سخر كل طاقات الإدارة المالية وجهدها ، كي تمتلئ الخزانة بالأموال بأي وجه من الوجوه ، وكيفما كان الأسلوب .

ولعل هذا هو الذي يفسر نزوح أعداد هائلة من أهالي الأقاليم الشرقية إلى العاصمة ، بحثاً عن المؤن ، حيث كانت حصة القمح المجانية لا تزال توزع في القسطنطينية ، وحيث حياة الترف والبهجة والهدوم ، والبحث عن عمل ومصدر رزق أوسع أو حظ أوفر . وهكذا وفد على المدينة فلاحون وزوجاتهم ، وقساوسة ورهبان وراهبات ، وتجّار ومحامون بلا عمل ، ومعظمهم منظمون جاءوا يضعون شكاياتهم عند أقدام العرش^(١٠١) ، خاصة بعد أن أصبحت هذه الأقاليم تئن تحت وطأة الضرائب الباهظة ، وضغط الحرب الفارسية التي كانت قائمة على قدم وساق طوال سبع سنوات (٥٢٤ — ٥٣١) ، أي قبل أن يعتلى جوستنيان

(99) Ibid. XXV.

(١٠٠) يستخدّم بروكوبيوس تعبيراً واحداً هو « ابتزاز الرعية » على امتداد صفحات كتاب « التاريخ السري » ، يصف به جهد جوستنيان ويوحنا الكبادوكي للحصول على الأموال ، للاتفاق على هذه المشروعات الكثيرة التي كان يطمح إلى تحقيقها جوستنيان . ويعطينا يوحنا الليدي تفصيلاً دقيقاً للضرائب الباهظة التي فرضت على الأهالي دون تمييز ، والتي بلغت في جملتها قرابة العشرين ضريبة . راجع :

IOAN. LYD. de magist. III 69-70.

(101) Ibid. 66.

العرش^(١٠٢) ، وان كانت الهدنة قد حلت مؤخرا ، وقد أصبح نزوح هذه الجموع الى العاصمة يشكل خطرا بالغاً على احتياطات الأمن والتموين فى القسطنطينية ، ولم تخف تشريعات جوستينيان هذه الحقيقة ، عندما راح الامبراطور يشكو فى أحداها — كما أسلفنا — من خلو الولايات من ساكنيها ، « بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »^(١٠٣) .

ولا شك أن الناس راحوا يتحسرون على الأيام الخوالى ، ألتى عاشوها زمن الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس ، حيث ألغى عددا من الضرائب كان الهدف منها تخفيف الأعباء الاقتصادية الثقيلة على الأهالى ، وعوض النقص الذى أصاب الخزانة من جراء ذلك ، بدخل الضياع الامبراطورية التى يبدو أنها زادت آنذاك الى حد كبير ، بالاضافة الى مصادرة ممتلكات الامبراطور السابق زينون وجماعته من الأبرزوريين ، والغاء الاعانة التى كانت مخصصة لهؤلاء الأخيرين^(١٠٤) . يضاف الى ذلك اشرافه الكامل على اخضاع المواد الغذائية للتسعيرة الجبرية المخفضة التى تحددها الدولة ، حتى يحول دون جشع كبار التجار^(١٠٥) .

وقد تمكن أنسطاسيوس ، بما عرف عنه من حرص شديد بلغ حد التقدير ، من معالجة الأزمة الاقتصادية التى نتجت عن التكاليف الباهظة التى تطلبتها الحملة الفاشلة على أفريقيا عام ٤٦٨ بقيادة باسيليسكوس ، وما تبع ذلك من فوضى داخلية بسبب الصراع عى العرش ، وما أحدثه الأيزوريون من اضطرابات فى العاصمة وخارجها ، وقد ترك أنسطاسيوس

(102) IUS. Nov. XVII, 2, 3; XXIV, 1, 3, 13, 15; XXX, 5; XXVII, XXXIII; XXXIV.

(103) IUS. Nov. XXV, 3; XXX, 9; LXXX.

KACH. Chron. IX, 14.

وراجع ايضا :

(104) MALALAS, Chron. p. 398.

EVAG. hist. eccl. III, 42.

وايضا :

Bury, Later Roman Empire, I, p. 442.

وراجع كذلك :

(105) Stein, Bas-Empire, II pp. 200-201.

خزانة عامرة بالأموال (١٠٦) . ورغم الأموال الطائلة التى جمعها جوستينيان خلال فترة حكم خاله جوستين عبر تسع سنوات ، والتى فاقت حسب رواية بروكوبيوس ما ادخره أنسطاسيوس على عهده البالغ سبعة وعشرين عاما ، الا أنه يبدو أن الحرب الفارسية والجزية المالية الضخمة التى قبل جوستينيان أن يدفعها للفرس ، وما أنفق على المشروعات المعمارية ، واللجان الفقهية التى وكل اليها اعداد مجموعة قوانين جوستينيان الشهيرة ، كل هذا قد استنفذ هذه الأموال الطائلة (١٠٧) .

من هنا كان السخط عاما على جميع الطبقات بلا استثناء ، عندما اندلعت الثورة فى القسطنطينية ، بسبب هذه السياسة المالية التى اتبعها النائب الامبراطور والمستشار المالى وباركها جوستينيان . ومن هنا نستطيع أيضا أن نتفهم حقيقة الدوافع التى حدت بالثائرين الى المطالبة بعزل يوحنا الكبادوكى من منصبه ، ليس فقط من جانب الفقراء الذين اعتصرتهم اجراءات يوحنا ، بل أيضا كبار الملاك الذين كانوا قد كونوا لأنفسهم قوات خاصة يقفون بها فى وجه السلطة الحكومية (١٠٨) .

ولم يكن هذا السخط ناجما فقط عن السياسة الضرائبية التى فرضها جوستينيان على شعبه ، من أجل تحقيق آماله ، بل ان سياسته العقيدية أيضا والتى كانت تسير فى ركاب الجيش ، كانت هى الأخرى عاملا هاما من العوامل التى ساهمت بدور ليس باليسير فى استفحال أمر الثورة الشعبية التى شهدتها القسطنطينية عام ٥٣٢ على النحو الذى رأينا . فبغض النظر عن المراسيم التى أصدرها جوستينيان ضد السامريين والماثويين والوثنيين واليهود ومختلف الطوائف الأخرى ، الذين « لا يستحقون الا كل الازدراء لأنهم لا يدينون بمذهب الدولة » ، أى

(106) IOAN. LYD. de magist. III 51.

PROCOP. hist. arc. XIX.

(107) Id.

Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 553.

(108) Baker, Justinian, p. 88.

وأيضا :

وراجع أيضا :

الأرثوذكسية الخلقيدونية^(١٠٩) التى حاول جاهدا أن يجعل لها مكان الصدارة فى الامبراطورية^(١١٠) ، الا أنه حاول فى عام ٥٢٩ ، استرضاء أهالى الولايات الشرقية الذين يدينون بالطبيعة الواحدة ، وذلك عن طريق إجراء حوار بينهم وبين الخلقيدونيين ، كما سمح باعادة الرهبان المنفيين من المونوفيزيتيين^(١١١) . ولا شك أن الحرب الفارسية الدائرة هى التى دفعت الى مثل هذه السياسة لضمان هدوء المناطق الشرقية ، الا أن الحوار الذى دار بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين ، لم يسفر عن شئ حاسم ، بل لم يتعرض الامبراطور لشئ مطلقا فى البيان الختامى لهذه المحاورات ، عن نطاق الخلاف الجوهرى بين المناظرة والخلقيدونيين ، أعنى مسألة الطبيعة والطبيعتين^(١١٢) .

الا أن هذا لم يكن يعنى للمناظرة سوى المزيد من سياسة التجاهل ثم العداء ، خاصة وأنهم قد عاشوا فترة آمنة على عهدى زينون وأنسطاسيوس ، وأن جوستينيان أبدى منذ فترة تواجده الى جوار خاله جوستين ، وخلال السنوات الأولى من عهده هو ، انحيازا صريحا الى جانب الأرثوذكسية الحكومية ، الخلقيدونية ولكم كان يدور بخلد جوستينيان أن يصبح سييد الكنيسة المطلق ، انطلاقا من الفكر السياسى الرومانى القائم على عدم السماح بوجود كيان مستقل أو دولة داخل الدولة . ومن ثم حرص على الاستحواز على الادارة الداخلية للكنيسة^(١١٣) . بل أقدم على اتخاذ خطوة لها خطورتها البالغة عندما أصدر قانونا نص على أن لقوانين المجامع المسكونية الأربعة الأولى ، نيقية

(109) CODEX Ius. Lib. I, Tit. V 11; Nov. VIII, 4; Nov. XLV.

(110) THEOPH. Chron. p. 276.

MALALAS, Chron. p. 449.

وأيضا :

(111) ZACH Chron. IX, 15.

(112) Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287.

Ure, Justinian and his Age, p. 112.

وأيضا :

(113) IUS. Nov. VI prael., 1, 5; 42; CXXIII, 1.

والقسطنطينية وافسوس وخالقيدونية ، قوة القوانين الامبراطورية (١١٤) .
 وكان هذا يعنى وضع الكنيسة تحت السيادة المدنية للامبراطور مباشرة ،
 باعتباره نائب المسيح على الأرض . وقد أفصح عن ذلك عندما اعتبر أن
 السلطتين ، الامبراطورية Imperium والكهنوتية Sacerdotium
 منبثقتان من مصدر واحد ، وتمثل ذلك فى ديباجة احدى تشريعاته حيث قال :
 « ان أعظم الهبات التى من الله بها من عل على بنى البشر ، بحب الانسانية
 Philantropia هى الكنيسة والامبراطورية ، الأولى ترعى ما يختص
 بالله ، والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى الانسان » (١١٥) . وبناء
 على هذا المعتقد ، كان يؤمن تماما أن من حقه اقرار عقيدة بعينها لرعاياه ،
 اذ الناس عنده على دين ملوكهم (١١٦) .

ولما كان جوستينيان امبراطورا روماني القلب والقبال ، يؤمن
 بعظمة الرومان وخلود روما ، فقد اعتبر الكرسي الرسولى فى روما رأس
 الكراسى الأسقفية الكبرى فى الامبراطورية دون منازع
 ووضع كرسى Caput omnium Sanctarum ecclesiarum
 القسطنطينية فى المرتبة الثانية بعد روما (١١٧) . ولا شك أن هذا كان يعنى
 احترام منصب الأسقف الرومانى ومخاطبته اياه فى رسائله بـ « البابا »
 و« الأب الرسولى » (١١٨) . ولما كان وقوف بابا روما الى جوار الامبراطور
 أثناء حروبه الاستردادية فى افريقيا وايطاليا ، أمرا لامندوحه عنه لنجاح
 هذا المشروع ، أضفى طبيعيا أن يكون ذلك على حساب أصحاب الطبيعة
 الواحدة فى الأقاليم الشرقية والقسطنطينية ، الذين ازداد سخطهم بصورة

(114) IUS. Nov. CXXXI, 1.

(115) IUS. Nov. VI prae.

(116) Vasiliev, history of the Byzantine Empire I, p. 148.

(117) IUS. Nov. CXXXI.

(١١٨) لم يمنع هذا جوستينيان من الوقوف موقفا متشددا من بابا روما
 فيجيليوس Vigilius عندما شعر أن الأسقف الرومانى يحاوج الخروج
 على رأى الامبراطور فى المسألة العقيدية . راجع تفاصيل ذلك فى :
 Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298.

واضحة ، وكان هذا عاملا هاما أيضا من العوامل التى لعبت دورها أفعال
فى ثورة « نيقا » عام ٥٣٢ •

ولأن الخضر ، الذين يلقبون التأييد من جانب أنصارهم فى الأقاليم
الشرقية ، هم الذين أطلقوا الشرارة الأولى لثورة القسطنطينية ، عندما
أعلنوا سخطهم وتبرمهم أمام الامبراطور فى يوم الأحد ، الحادى عشر
من يناير ، فى الهيدروم ، فقد اتخذ بعض المؤرخين من ذلك ذريعة لاعتبار
هذه الثورة ثورة مونوفيزيكية بكل المعايير ، وفى مقدمة هؤلاء يأتى المؤرخ
« باكر » Baker الذى يقول ان الثورة قامت بتحريض من المنافزة ،
ويذكر أن جوستنيان كان يرى أن حزب الخضر كله من أصحاب الطبيعة
الواحدة ، الذين يشكلون عدوا رسميا لسياسة الوحدة العقيدية فى
الامبراطورية ، وأنهم أنصار الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس • ثم يكتب
بعد القضاء عليها : « الآن تم سحق الثورة التى عرفت مؤخرا باسم
« فتنة النصر » ، ثورة الخضر والزرق ، وان كان من المفضل تسميتها ثورة
المونوفيزيتيين » (١١٩) •

ومع عدم اغفال مظاهر السخط الدينى على السياسة العقيدية التى
اتبعتها جوستنيان ، الا أن ذلك لا يعنى التركيز على جانب واحد فقط ،
ووصف هذه الثورة بأنها ثورة « دينية مذهبية » ان صح هذا التعبير ،
خاصة وأن فرقا عديدة أخرى غير المونوفيزيتيين ، مثل المانويين
والاريسيين والسامريين وطوائف يهودية ومسيحية أخرى ، قد أضيرت
بصورة واضحة من جراء التشريعات التى أصدرها ضدهم جوستنيان ،
والتي تمتد من التضييق عليهم فى ممارسة طقوسهم ، الى الطرد من
الوظائف العامة ، الى المصادرة والتدخل فى حق الوصية ، الى الاعدام ،
نقول •• ان وصفها على هذا النحو يعد نوعا من المبالغة واغفالا لحقائق
هامة أخرى كان لها دورها الكبير فى ثورة القسطنطينية •

بل ان معاناة الوثنيين كانت أشد وأكبر ، فقد استخدم جوستينيان ، برواية المعاصرين ، أسلوبا عنيفا ضد الشخصيات الكبرى من الوثنيين الذين يشغلون عددا من المناصب الهامة فى الدولة ، فأقصاهم عن وظائفهم ، وصادر ممتلكاتهم ، وقاد بعضهم الى القتل (١٢٠) . على أن الصفة القوية التى وجهت اليهم ، خاصة مثقفهم وذوى الفكر فيهم ، هو القرار الذى أصدره فى عام ٥٢٩ بإغلاق جامعة أثينا ، وحرّم على الأساتذة الوثنيين الاشتغال بالتدريس (١٢١) ، ولم يجد هؤلاء أمامهم من سبيل سوى الهروب الى فارس ، والاختباء بكسراها الذى رحب بهم . ومع أن هذا القرار قد جاء تمشيا مع السياسة العامة التى يتبعها جوستينيان ، لاقترار السيادة الأرثوذكسية الحكومية الخلقيدونية ، الا أنه يمكن القول انه قد اتخذ لصالح جامعة القسطنطينية ، التى كان قد صدر قرار انشائها فى عام ٤٢٥ على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى .

ومع مرور قرن على انشاء جامعة القسطنطينية ، الا أن الشهرة الفكرية ظلت لجامعة أثينا الوثنية ، وظل كثير حتى من آباء اللاهوت المسيحى فى الامبراطورية ، يتلقون تعليمهم فى أثينا . ومن ثم أيقن جوستينيان أن جامعة القسطنطينية «الوليدة» لن يكتب لها النجاح والذيع مادامت جامعة أثينا قائمة ، ففضى بذلك على قلعة من أهم قلاع الفكر الفلسفى فى الامبراطورية ، مما ترك آثاره وبصماته الواضحة على منطقة جنوب شرقى أوروبا ، متواكبا مع ما سبق من الغزو الجرمانى وهطول غزوات جديدة صقلبية وتركية على منطقة اللبقان . فاذا أضفنا الى هذا أن جامعة القسطنطينية بمقتضى القرار الصادر من ثيودوسيوس الثانى بانشائها ، كانت تابعة تبعية مباشرة للسلطة الامبراطورية ، وأن جامعة أثينا كانت بعيدة عن مثل هذه السيادة ، أدرك المخاوف الحقيقية التى كان جوستينيان يضعها فى حساباته ، باعتباره حاكما مطلق السلطان .

(120) PROCOP. hist. arc. XI.

MALALAS, Chron. p. 449.

(121) MALALAS, Chron. p. 448.

وأياها :

ومن ثم أضاف جوستنين يقراره هذا الى قائمة خصومه ، خصوصا آخرين
من رجال الفكر وخاصة المثقفين .

هذه الناحية ، أعنى فكرة السيادة المطلقة ، نلمسها فى اختيار
جوستنين لمعاونيه ، فقد كان حريصا على اختيار عناصر تعود الى أصول
غير معروفة ، ودون النظر الى طبقاتها الاجتماعية^(١٢٢) حتى يضمن ولائهم
الكامل وعدم معارضتهم له الرأى ، من ذلك مثلا اقدامه على عزل
ديموسثينيز Demosthenes النائب الامبراطورى العجوز ، والذي كان
فيما يبدو زعيما لجماعة المحافظين من رجال السناتو ، والذين ساهموا
بدور ملموس فى اختيار جوستنين للعرش ، وعين بدلا منه يوجنا
الكبادوكى^(١٢٣) . وقد جلبت عليه هذه السياسة غضب كثير من العناصر
النبييلة خاصة الطبقة السناتورية ، التى رأت فيه خصما عنيدا وتهديدا
خطيرا لمصالحها ، بعد أن تأكد لديها بصورة لا تقبل المناقشة عزم
جوستنين على تخطيطها تماما ، وهى التى كانت قد نفضت عن نفسها
منذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا ، غبار القرون الطويلة التى أريد لها خلالها
أن تظل بعيدة عن المسرح السياسى فى الامبراطورية .

ولم يكن من السهل أن يلتقى أبدا فكر جوستنين عن السانطة
المطلقة المستمدة من الله ، وتطلعات « الشيوخ » للقيام بدور فعال فى
الحياة السياسية . وكان يبدو واضحا منذ النصف الثانى من القرن
الخامس ، أن الأباطرة — فى مواجهة ازدياد النفوذ الجرمانى فى بلاط
العاصمة ، رأوا تشجيع النبالة الرومانية لتكوين جبهة مناصرة لهذه العناصر
الجرمانية ، بل ان هذه الناحية تعود الى الى أوائل ذلك القرن ، على عهد
الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥ — ٤٠٨) عندما تزعم أحد
الشيوخ ويدعى أرويليان Aurelianus زعامة هذه الجبهة فى مواجهة
القائد الجرمانى جايناس Gainas فى العاصمة . وظل هذا المديعلو

(122) Holmes, Justinian and Theodora, II, p. 442.

(123) PROCOP. hist. arc. XI.

يشكل ملحوظ حتى ظهر بدور عملى فى الأحداث التى أعقبت وفاة الامبراطور ليو الأول عام ٤٧٤ ، وترك سميّه وحفيده لابنته ، طفلا صغيرا يتولى الوصاية عليه أبوه الأيزورى زينون ، غير أنه لم يلبث أن مات بعد شهور قليلة ، لينتقل العرش الى أبيه ، الذى تعرض فى أول عهده للطرد من العاصمة ، الا أن السناتو نجح بالفعل فى إعادة العرش اليه ثانية ، بعد اغتصاب باسيليسكوس لهذا العرش فترة امتدت عشرين شهرا •

لكن السناتو وجد فى زينون وجماعته من الأيزوريين ، خطرا لا يقل عن الجرمان من قبل ، ولذا سعى جهده للتخلص من هذا النفوذ الأيزورى ، ونجح فى النهاية فى تفويت الفرصة على لونجينوس Longinus شقيق زينون فى الاستيلاء على السلطة ، وتم اختيار مرشح آخر هو أنسطاسيوس امبراطورا •

على أن السناتو وافته الفرصة الذهبية بعد موت أنسطاسيوس ، دون أن يعقب ولدا ، ومع أنه كان له أبناء أخ ثلاثة ، بروبوس وبومبي وهيباتيوس ، الا أن النية بيتت على تجاهلهم من جانب الجيش والسناتو على السواء • وأقدم أمانتيوس Amantius كبير الأمناء فى البلاط ، على دفع مبلغ كبير من المال الى جوستين Iustinus الذى كان رئيسا للديابذة Excubitors احدى فرق الحرس الامبراطورى ، ليقدمه رشوة للجند لاختيار شخص مغمور للعرش يدعى ثيوكريتوس Theocritus • وفى صبيحة التاسع من يوليو عام ٥١٨ ، شهد الهبدروم • كما يجرى دائما فى مثل هذه الظروف — تجمعا ضخما لأهالى القسطنطينية ، الذين راحوا يخلعون على السناتو آيات التبجيل والاحترام ، ويهتفون مطالبين مجلس الشيوخ باختيار الامبراطور الجديد ، وشهدت أروقة القصر وقاعاته اجتماعات عاجلة ، شارك فيها كبار الموظفين وأعضاء السناتو والبطريرك ، وانتهت الآراء الى ضرورة انتهاز هذه الفرصة حتى لا يسبقهم الجيش والغوغاء الى اختيار مرشح للعرش ، هذا فى الوقت الذى لعبت فيه النقود التى فى حوزة جوستين دورها

لصالحه ، وليس من أجل ثيوكريتوس • وهكذا أقدم السناتو على اعلان جوستين امبراطورا ، وقدموه للجمع فى الهيدروم ، حيث هتفوا بحياته ، وتم تتويجه على يد بطريك القسطنطينية (١٢٤) •

وقد أقر جوستين بدور السناتو فى وثيقة رسمية بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش ، وهى الرسالة التى بعث بها الى البابا فى روما ، وجاء فيها : « بنعمة الثالوث الأقدس ، واختيار كبار رجال قصرنا المقدس ، ومجلس السناتو ، ثم مباركة الجيش وتأيينه ، توليت قياد الامبراطورية (١٢٥) • وهى للشيوخ على هذا النحو ، أنهم فى طريقهم الى أن يعود بهم الزمن ثانية الى القرنين الأخيرين من العصر الجمهورى الرومانى ، ووصلوا بحالهم بجوستينيان ابن أخت جوستين وولى عهده : حتى يجعلوا منه مستقبلا رجلهم • وأفاد هذا من تطلعاتهم ، فأوحى اليهم أن يطلبوا الى الامبراطور ، أن يشرك معه ابن أخته ، بصورة رسمية ، فى ادارة شؤون الدولة • غير أن جوستين رفض هذه المحاولة ، وحذرهم من تسليم مقاليد الأمور فى الدولة الى شباب غريب (١٢٦) • لكن السناتو جدد المحاولة ثانية حتى تمكن عام ٥٢٥ من اقناع جوستين بمنح ابن أخته لقب القيصر • ولم يمض على ذلك عامان حتى جرت مراسم تتويج جوستينيان امبراطورا شريكا وخاله على فراش الموت ، وشهد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين وقادة الحرس الامبراطورى (١٢٧) • وهكذا أصبح لدى السناتو كبير أمل فى أن يشارك عمليا فى صنع السياسة الامبراطورية ، بعد هذه الممارسة التى تصورها واقعا حقيقيا ، لاختيار

(١٢٤) راجع تفاصيل هذه الاحداث فى :

MALALAS, Chron. pp. 410-411

وأيضا : Bury, Later Roman Empire, II, pp. 16-18.

وكذلك : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 266-276.

(125) Bury, op. cit., p. 18.

(126) ZONAR. epit. XIV, 5.

(127) EVAG. hist. eccl. IV, 9.

أربعة أباطرة على التوالي^(١٢٨)، واعتقدوا أن اختيار شاب يافع في الأربعينيات من عمره، كان الامبراطور العجوز جوستين قد حذرهم من مثله آنفاً، سوف يجعله أداة طيعة في أيديهم، وأن الامبراطور الجديد لن يعدو أن يكون رجلهم.

غير أن السناتو أصيب بخيبة أمل بالغة بعد سنوات قلائل من اعلان جوستينيان امبراطورا، وتبين لهم أن «رجلهم» هذا ليس الا امبراطورا رومانيا حريصا على تراث الأسلاف فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، يعد نفسه خليفة القياصرة الرومان^(١٢٩)، رفع شعارا لا مواربة فيه، مؤداه «دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة، وهو السيد الأعلى في هذه الدولة» وقد تضمنت تشريعاته ومراسيمه، عزفا متواصلا على هذه النغمة التي لا بد أن يعيها الجميع. وحمل جوستينيان كل الانقلاب التي حملها من قبل الامبراطوران أوغسطس وتراجان، وزاد عليها، مثل «الامبراطور • القيصر • قاهر الألمان والقوط والفرنجة والجرمان والوندال والأفريقيين • النقي • المتهج • الشهير • المنتصر • المظفر • الأوغسطس على الدوام»^(١٣٠).

وجاء في ديباجة الأمر الصادر الى الفقيه تريبونيان، بشأن القيام بجمع الفتاوى وأحكام المحاكم وآراء الفقهاء والمشرعين، وغزبتها، وتقديمها بصورة ينتفع بها، فيما عرف باسم الدايجستا Digesta جاء في هذه الديباجة عن سلطة الامبراطور: «اننا نحكم امبراطوريتنا بتفويض من الله، وهو في عليائه قد تفضل بها علينا، وبكل قلوبنا نرفع الى السماء أكف الضراعة، سائلين عون الاله في أن يبارك خطونا، في اعادة بناء دولتنا • ان ثقتنا من ثم لا نضعها في جيشنا، القادة والجنود،

(١٢٨) نغني بذلك الأباطرة: زينون وأنسطاسيوس وجريستين وجوستينيان.

(129) Diehl, By Zantium, p. 30.

(130) Id.

ولا فى مقدرتنا ، بل نضعها كاملة فى السماء ، فى الثالوث المقدس
وحده » (١٣١) .

ولم يمل الامبراطور جوستينيان من ترديد هذا المفهوم وتأكيده فى
كل مناسبة تعن له ، وحملت تشريعاته صورة واضحة عن فكره حول
سلطة الامبراطور ، « ان الله قد أناب السلطة الامبراطورية لرعاية شئون
العالم » ، « ان الله هو الذى وضع على رأسنا التاج ، وهو الذى خلع
علينا العباءة الأرجوانية ، وهو الذى فضلنا على كثير من السابقين » (١٣٢) .
بل ان الفنان البيزنطى قد استوحى هذه الصورة عندما أبدع الفسيفساء
الشهيرة التى تزدان بها كنيسة سان فيتال St. Vitale فى رافنا
Ravenna بايطاليا ، والتى تصور جوستينيان وقد علتة هالة ، مشيراً
بذلك الى الملك الكاهن على رتبة « ملكى صادق » Melchisedech (١٣٣) .

وكان جوستينيان يدرك جيداً ما يصبو اليه السناتو ، ولم يكن هو
بالتالى — فى ضوء هذه الأفكار — يريد مجلساً للسناتو على هذا النحو
من التأثير فى الأحداث ، بل يريد « سناتو » يعبر عنه بروكوبيوس أصدق
تعبير ، ليس فقط كما يريد الامبراطور ، بل ما أراد له فعلاً بعد ثورة
عام ٥٣٢ ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن ، مجرداً من كل
سلطان ، لا يملك اصدار قرار أو يمتلك أية بادرة طيبة ، يجتمع فقط من
أجل استكمال الشكل العام ، لا يسمح لأى من أعضائه أن ينبس ببنت
شفة » . يصدق فى النهاية على كل ما يراه الامبراطور » (١٣٤) .

من هنا كان لابد أن يقع الصدام بين فكرين يقفان على طرفى
نقيض ، ومن هنا أيضاً نستطيع أن نفسر أحداث الثورة ، وأن نرتب
أدوارها ، فالمطالبة بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من الاعداء ، ثم بعزل

(131) IUS. Digesta, I, praef.

(132) IUS. Nov. VI, praef.; Nov. XXX, 11.

(١٣٣) هسى : العالم البيزنطى ، ص ٢٣٩ .

(134) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

والى المدينة يودايمون ، كان يتفق وطبيعة سير الأحداث ، من القبض على الرجلين اللذين ينميان الى حزبي الزرق والخضر ، ورفض الامبراطور اجابة الحزبين الى ملتسمهم باطلاق سراح الرجلين ، أما اشراك يوحنا الكبادوكى وترييونيان الفقيه والمحامى الذائع الصيت ، فلم يكن يعنى ، بتعبير زكريا المتلبنى — الا اشتراك عناصر أخرى فى الأحداث وتسييرها لدفتها (١٣٥) . وقد علمنا من قبل الدور الذى اضطلع به يوحنا الكبادوكى فى السياسة المالية واضرائيية ، التى أثارت سخط جميع الطبقات وفى مقدمتها كبار ملاك الأراضى ، وهم يشكلون فى معظمهم الطبقة السناطورية النبيلة . أما ترييونيان فقد كان دور رجال السناطو فى المطالبة باقتصائه عن منصب الكويستور ، واضحا ، فهو الذى أحاط السلطة الامبراطورية المطلقة التى أرادها جوستتيان بسياج قانونى ، ووضع لها الضمانات الكافية التى تجعل من الامبراطور السيد المطلق ، البانتوقراطور Pantocrator ، حتى جرى على السنة الجميع آنذاك ، ان كل ما يشاء الامبراطور ، له قوة القانون (١٣٦)

Quod principi placuit, legis habet Vigorem

وقد عد ترييونيان مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما يتصل بالناحية التشريعية ، أو بتعبير آخر ، عن تقنين السلطة الامبراطورية المطلقة (١٣٧) .

على هذا النحو يمكننا القول ، ان الأمور خلال اليومين الأولين للثورة ، ١١ و ١٣ يناير ، كانت بيد زعماء حزبي الزرق والخضر ، وكانت مطالبهم تنحصر فقط فى التماس العفو عن الرجلين الناجيين من المشقة ، وان كان يعينهم ما حدث من بعد من المطالبة بعزل يودايمون والى المدينة .

(135) ZACH. Chron. IX, 14.

(136) Kolbert, The Digest of Roman law, p. 17.

(١٣٧) لم يسلم ترييونيان من قلم بروكوبيوس اللاذع ، حيث وصفه بالجشع والنهم الشديد لجميع الأموال ، شأنه فى ذلك شأن يوحنا الكبادوكى ، حتى أنه كان على استعداد لتغيير القوانين وتبديلها وبيعها لمن يشاء . ولكن بروكوبيوس لم يستطع انكار ثقافة ترييونيان العريضة « التى لا يدانيه فيها أحد من معاصريه » ، حسب تعبيره . انظر :

PROCOP. bel. pers. I, XXIV, 16.

ولم يخرج ما حدث خلال هذين اليومين فى الهيدروم ، عن غيره مما كان حدث من الاضطرابات تشهدها العاصمة من قبل ومن بعد . حتى اذا كان اليوم الثالث للثورة ، الأربعاء ١٤ يناير ، وطالب الثائرون بعزل يودايمون ويوحنا الكبادوكى وترييونيان ، أمسى واضحا أن القيادة أفلتت من يد زعماء الحزبين ، انتقلت الى « أفراد معينين » بقول زكريا المتلىنى ، كما أسلفنا . ولم يكن هؤلاء « الأفراد المعينون » سوى رجال السناتو ، الذين أفصحوا عن نياتهم الحقيقية وكشفوا عن وجوههم ، منتهزين فرصة هذه الاضطرابات ، ليضربوا ضربتهم والحديدة محماة . وتمثل ذلك على الفور فى تحريض الجموع الذين امتلأت بهم العاصمة ، على الذهاب مباشرة الى دار « بروبوس » ابن أخ أنسطاسيوس ، للمناداة به امبراطورا ، وكان هذا فى اليوم الثالث للثورة ، أو بتعبير أدق ، فى اليوم الأول للثورة الحقيقية ، بعد أن أصبح واضحا أن الهدف ليس فقط عزل الوزراء الثلاثة ، بل اختيار امبراطور جديد . ومن ثم يمكن أن يعزى الى رجال السناتو ، كما قول بيورى Bury فشل سياسة الترضية التى اتبعها جوستينيان ، عندما رضى لمطالب الثائرين وعزل وزرائه الثلاثة ، ولم يحل دون تحقيق رغبة السناتو ، سوى رفض « بروبوس » ووجود الأخوين « بومبى » و« هيباتىوس » داخل القصر الامبراطورى . فإذا ما أمرهم جوستينيان بمغادرة القصر ، حتى اهتبلوا الفرصة ، وأكروهوا هيباتىوس على ما أخفقوا فيه مع بروبوس .

بل لقد ذهبت بهم الحماسة مبلغها ، عندما عقدوا اجتماعهم الخطير الذى حدثنا عنه باستفاضة بروكوبيوس ، وقرروا قيادة هجوم الثائرين على القصر الامبراطورى ، بعد أن نقل اليهم من كانوا بداخله ، حالة التردى والضعف الذى كان عليه القصر . ولم يصنع هؤلاء المتحمسون لصوت العقل والتروى الذى خاطبهم به أحد زعمائهم ، أوريجن ، بترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى يسقط العنصر بمن فيه دون عناء ، « اننا اذا ما عالجتا هذه الحالة بترو ، أصبحنا قادرين على أن نأخذ جوستينيان فى قصره ، لكنه لا شك سوف يكون أكثر وأسرع شكرا .

لمنسمح له بالفرار !! ذلك أن السلطة التي يتم تجاهلها تفقد سلطانها ، وينحسر يوما بعد يوم عنفوانها » (١٣٩) . لكن المؤتمرين ضربوا عرض الحائط بحديث أوريجن ، واعتقدوا — كما يقول بوكوبيوس بالحرف الواحد — : « ان هذه هي الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم (١٤٠) » . ولعل القرار الذي اتخذته جوستينيان بعد القضاء على الثورة ، بالقبض على ثمانية عشر عضوا من أعضاء مجلس السناتو ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ليعيد دليلا عمليا على السياسة التي أعلن الامبراطور ، بهذا التصرف ، عن اتباعها في المستقبل ازاء أعضاء مجلس الشيوخ .

ولم يكن تأثير الحرس الامبراطوري ، القوة الضاربة في الجيش ، في أحداث هذه الثورة ، يقل شيئا عن تأثير السناتو ، ان لم يكن يفوقه !! على الرغم من أن دور كل منهما كان يختلف اختلافا جذريا عن الآخر ، وان بدا متما له لابتغائهما شيئا واحدا في النهاية . فبينما كان موقف السناتو ايجابيا تماما ، كان دور الحرس الامبراطوري يمثل السلبية بعينها ، لكنها السلبية المدمرة ، حتى اننا لا نستبعد حدوث تنسيق بين كل من الطرفين ، دليلنا على ذلك تطور الأحداث خلال أيام الثورة ، وما كتبه مؤرخ معاصر قريب من الأحداث ، كان يرويها من داخل القصر الامبراطوري ، هو بروكوبيوس ، رغم أنه لم يقف عند بعض التفاصيل .

فقد كان الحرس الامبراطوري يتولى تأمين الاتصال بين القصر والمقصورة الامبراطورية بالهدروم ، عبر الدهليز الموصل بينهما ، فلما تقرر مهاجمة الثائرين في المضمار ، بعد الخطاب الذي ألقاه ثيودورا خلال اجتماع « اليأس » الذي عقد بالقصر ، صبيحة الأحد الثامن عشر من يناير ، كان على « موندوس » أن يفاجئ الهيدروم من أحد بواباته الخارجية ، بينما يقوم « بليزارايوس » بالوصول مباشرة من داخل القصر الى المقصورة ، وتوجه ضربة مؤثرة للثائرين ، وذلك بمباغتتهم على

(139) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 29.

(140) Ibid. 31.

هذا النحو ، والقبض على هيباتئوس ، لحرمانهم من ثمرة انتصارهم . ولا شك أن هذه الخطة كانت كفيفة بتحقيق نجاح يكاد يكون مؤكدا ، بدلا من المعامرة غير المضمونة التي قام بها بليزارئوس مؤخرا ، بمهاجمة الهيدروم من خارج القصر ، كما فعل موندوس . لكن قوات الحرس الامبراطوري تصدت لبليزارئوس وقواته ، ورفضت السماح لهم بالمروق الى المقصورة مباشرة .

ولم يكن هذا الموقف جديدا على هذه « القوات النظامية » ، خلال حرب الأيام الثلاثة (١٥-١٧ يناير) التي دارت في شوارع العاصمة ، بين بليزارئوس والثائرين ، لم يبد الجنود أى استعداد للمشاركة في هذه الحرب الى جانب الامبراطور ، مما أدى الى فشل بليزارئوس بقواته القليلة المكونة من القوط ، والتي كان قد عاد بها مؤخرا من الجبهة الفارسية ، في حسم هذه المعركة لصالح الامبراطور . ولعل هذا هو الذى دفع جوستينيان الى الاقدام فى مساء السابع عشر من يناير ، على طرد كل من بومبي وهيباتئوس من القصر ، كما طرد أيضا رجال السناتو القابعين بداخله ، ولا ريب أن الشكوك قد ساورته فى احتمال أن تكون هناك مؤامرة ، قد تم تدبيرها بين كل من رجال السناتو داخل القصر وقوات الحرس الامبراطوري ، لاعلان أى من الأخوين امبراطورا بعد القبض على جوستينيان أو اغتياله ، بعد أن انتهت الحرب الأهلية دون أى نتيجة حاسمة فى جانب الحكومة . ويقول بروكوبيوس بالحرف الواحد : « لقد كان الجنود جميعهم ، حتى أولئك الذين فى بلاط الامبراطور ، غير راغبين فى مساعدته ، أو اتخاذ أى اجراء فعلى من أجل مقاومة الثورة ، بل كانوا ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل !! » (١٤١) .

وقد يؤكد هذه الناحية ، ما كان معروفا من أن الفرقة القديمة في الحرس الامبراطوري ، الـ Scholae كانت على صلة وثيقة بالسناتو ، بينما الفرقة الأخرى ، الـ Excubitors كانت تميل بين الحين والآخر

الى جانب الخضر ، وبولائها للامبراطورين ليو الأول وزينون ، اللذين كانا لهما الفضل فى تقويتها وتدعيمها^(١٤٢) ، وأن هذه الفرقة الأخيرة التى كان جوستين يتولى قيادتها قبل اعتلائه العرش ، قد حنقت على الامبراطورين جوستين وجوستينيان ، ميلهما الى الزرق • ومن ثم ليس من الصعب تفسير الموقف الذى اتخذه الحرس الامبراطورى •

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحرس الامبراطورى الى اتخاذ هذا السبيل ، كان أبعد من ذلك بكثير • فالآمال التى كانت تداعب خيال السناتو ، بعصر يعود له فيه عرشه القديم فى ظل النظام الجمهورى الرومانى ، كانت هى الأخرى تتراقص أمام عيني الحرس الامبراطورى • فقد أدرك هو الآخر أن جوستينيان يرسى قواعد ثابتة لنظام حكم مستقر ، تصبح كلمة الامبراطور فيه هى العليا • وراح يترحم على أيام خلت كان للجيش فيها القول الفصل فى اختيار الجالس على عرش الامبراطورية ، وإذا كانت المسائل تقاس بالمصالح الخاصة ، فإن عصر الجيش الزاهر ، بمقاييسه طبعاً ، فى ممارسة لعبة السياسة ، واجادة فنونها ، وان جرى على حساب النظام العسكرى ، كان هو الفترة الممتدة الى نصف قرن ، بين عامى ٢٣٥ — ٢٨٤ ، وهى التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بأزمة القرن الثالث • فقد قام الجيش خلالها باختيار ستة وعشرين امبراطوراً ، وقام أيضاً بانهاء حياة خمسة وعشرين منهم قتلاً !! واضعاً أمام ناظرية عبارة سبتمىوس سفروس لولده ، « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالآلالاخرين » • بل ان غالة وحدها شهدت بين سنتى ٢٥٧ — ٢٧٣ خمسة أباطرة ! وحتى عندما حاول دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤—٣٠٥) إعادة الهية الى المنصب الامبراطورى ، وايجاد نظام بديل عن هذه الفوضى ، فى اطار اصلاحاته السياسية ، وأقدم على اتخاذ النظام الرباعى لإدارة الامبراطورية ، لم يلبث هذا النظام أن لقى حتفه بعد اعتزال دقلديانوس عام ٣٠٥ بسنه واحدة ، وعادت الفوضى من جديد لتشهد

(142) Lindsay, Byzantium, p. 55.

الامبراطورية على عرشها فى عام ٣٠٨ ستة أباطرة ! وكان لابد أن ينهار النظام الرباعى ، لأنه اعتمد أساسا على شخص واضعه ، ولم يرتكز على قاعدة سياسية معينة . وعادت الحرب الأهلية من جديد ، تشغل قاعدة الفيالق الرومانية طوال ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٣٣) حتى انتهى الأمر بانفراد قسطنطين بالسلطة (١٤٣) .

وحتى قسطنطين نفسه، كان اختياره للعرش عام ٣٠٦ على « يد الفيالق الرومانى فى بريطانيا » فى السنة التى أعلن فيها الحرس الامبراطورى اختيار ماكسينتيوس امبراطورا فى روما . غير أن قسطنطين بذكائه السياسى نجح فيما فشل فيه أسلافه ، من اقرار نظام ثابت لاعتلاء العرش الرومانى ، وهو ما كانت تفتقر اليه الامبراطورية منذ سنى عمرها الأولى ، أى منذ جرد السناتو عمدا من ممارسة اختصاصاته فى هذا السبيل ، وانتقل الأمر الى الجيش ، وأُمسّت الحال الى فوضى . وعلى الرغم من أن الامبراطورية كانت تحكم منذ عصر أوغسطس أوكتافيانوس حكما استبداديا ، الامبراطور فيه صاحب السلطة المطلقة ، حتى وان كان هذا الاستبداد مقننا زمن أوغسطس بمقتضى السلطات الاستثنائية التى خلعها عليه مجلس الشيوخ ، الا أن أحدا من الأباطرة لم يكن قادرا على المجاهرة بالتخلى عن التقاليد الجمهورية القديمة ، حتى وان استطاع بعضهم ذلك ، لكنه لم يكن القاعدة ، أعنى بذلك مبدأ وراثة العرش . ومع أنه كان مرفوضا باعتباره خروجا على التقاليد الجمهورية الرومانية ، الا أننا نجده قائما مثلا فى أسرة سفروس وأسرة الأنطونيين . وان لم يمثل ذلك قاعدة معترفا بها ، حتى أن دقلديانوس نفسه ، عندما أقدم على اقرار النظام الرباعى ، ابتعد عن مسألة الوراثة تماما (١٤٤) .

(١٤٣) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، ودور الجيش فيها ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الأول .
(١٤٤) فى إطار هذا النظام كان دقلديانوس يعتبر الامبراطور أو السيد الأول ، وقد اختار عام ٢٨٦ ماكسيميانوس زميلا له فى النصف الغربى ، وحمل كل منهما لقب أوغسطس . وفى عام ٢٩٣ اكتمل هيكل الحكومة الرباعية ،

لذا أقدم قسطنطين وقد تمثل له كل هذا ، على اقرار مبدأ وراثته العرش الرومانى ، طريقا لاختيار الامبراطور الجديد ، وسبيلا لايجاد الاستقرار السياسى فى الامبراطورية ، وان ظل مبدأ اختيار الامبراطور قائما من الناحية النظرية تقليدا رومانيا . ومن ثم فانه عمد قبل وفاته الى اعلان أبنائه الثلاثة قياصرة ، وقسم فيما بينهم ادارة الحكم فى الامبراطورية ، وتدعم هذا أيضا باتباع الامبراطور ثيودوسيوس الأول له (٣٣٨-٣٩٥) ، عندما عهد الى ولديه أركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius بادارة شئون الحكم فى الامبراطورية من بعده .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضفى قسطنطين على منصب الامبراطور نوعا من القداسة ، اذ لم يعد مقبولا فى ظل تحول الامبراطورية الى المسيحية ، أن يظل الامبراطور مؤلها ، ولا أن يحمل لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus ومن ثم فليحل « الأسقف الأعلى » محل الأخير^(١٤٥) ومع أن هذا اللقب - أعنى « الأسقف الأعلى » ليس موجودا من الناحية الرسمية ، الا أن الامبراطور راح يمارس سلطات كل هذا اللقب فوق أساقفة الكنيسة ، التى غدت فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا قسطنطين بقلم يوساب القيسارى ، مؤرخ الكنيسة ومداح الامبراطور ، الحوارى الثالث عشر للمسيح ، بعد

عندما عين دقلديانوس مساعدين ، أحدهما فى الشرق هو جاليوريوس ، وثانيهما فى الغرب هو قسطنطيوس وخلع على كل منهما لقب قيصر ، فلما كان عام ٣٠٥ وأعلن دقلديانوس وزميله اعتزالهما ، وارتقى القيصران الى مرتبة الاوغسطسية ، تم اختيار قيصرين جديدين هما ماكسيمن دايا فى النصف الشرقى ، وسفروس فى النصف الغربى . وغض الطرف تماما عن ماكسنتيوس ابن ماكسيميانوس وقسطنطين بن قسطنطيوس ، اللذين نادى بهما الجنود بعد ذلك امبراطورين ، راجع للباحث الدولة والكنيسة . الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

(١٤٥) من المعروف أن لقب الكاهن الأعظم ظل الأباطرة يحملونه رغم تحولهم الى المسيحية صراحة ابتداء بأبناء قسطنطين ، الى أن تولى عنه الامبراطور جراتيان Gratianus فى سبعينيات القرن الرابع .

أن خلع هو على نفسه صفة « مبعوث العناية الالهية » (١٤٦) ، ولقيت النظرية اليوسايبية ، التي بشرت بامبراطورية مسيحية ، نجاحا زمن قسطنطين ، ورواجا على عهد خلفائه ، بحيث أضحت « القيصرية البابوية » Caesropapism عنوانا على السلطة الامبراطورية في بيزنطة ، وليمسى الامبراطور بكل المعايير « نائب المسيح » على الأرض ، وهي القاعدة التي حاول جوستينيان ارساءها بكل قواه ، وراح يركز عليها دائما في معظم تشريعاته التي صاغها له الفقيه ورجل القانون الشهير تريبونيان .

كان هذا كله ماثلا في ذهن الحرس الامبراطورى ، كما كان ماثلا في ذهنه أيضا أن الامبراطورية قد شهدت بمقتضى نظام قسطنطين السياسى وحتى الآن أسرتين فقط ، هما أسرة قسطنطين وأسرة ثيودوسيوس ، وأنها منذ وفاة ثيودوسيوس الثانى عام ٥٠٠ وحتى سنة ٥١٨ ، أى قرابة ثلاثة أرباع قرن الا قليلا ، وهى تحكم بأفراد لا ينتمون الى أسرات بعينها ، وليس لهم أصول اجتماعية مرموقة ، ولم يكون أحدهم أسرة تتوارث العرش (١٤٧) . ولم يغب عن ذهن العسكريين أنهم ساهموا بدور ما فى صنع هذه الأحداث خلال هذه الثمانى والستين سنة ، وأملوا أن يعود اليهم دورهم القديم قبل أن يضع قسطنطين قاعدة وراثه العرش الامبراطورى ، وقبل أن يقدم جوستينيان على أن يمكن لهذا النظام فى الأرض بشكل قانونى . لهذا كان طبيعيا أن يقف الجنود هذا الموقف المتسم بالسلبية الكاملة ازاء ما يجرى لامبراطورهم « انتظارا لما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل » ، حسب تعبير بروكوبيوس ، لأنهم بتعبيره أيضا

(١٤٦) يمكن أن نطالع رسائل قسطنطين الى الأساقفة ، ورسالته الى ملك فارس ، وهى مبسطة كلها فى كتاب « حياة قسطنطين Vita Constantini » الذى وضعه يوساب فى مدح الامبراطور ، ورفع فيه قسطنطين الى عليين . وقد بسطت هذه الآراء تفصيلا فى الأجزاء الثلاثة ، الثانى والثالث والرابع ، التى صدرت من كتابنا : الدولة والكنيسة . (١٤٧) هؤلاء الابطارة على التوالى هم : مارقيان ، ليو الأول ، زينون ، باسيليوس ، ثم زينون مرة أخرى ، فأنسطاسيوس ، ثم جوستين .

« كانوا قد عزموا على عدم الانحياز لأى من الطرفين ، حتى يتبين بصورة واضحة رجحان كفة أى منهما » (١٤٨) .

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا فى خضم هذا العرض للدوافع والظروف التى قادت الى ثورة القسطنطينية هذه ، العامل الشخصى أحيانا ضمن هذه الدوافع . فالسنانو لم ينس مطلقا أن جوستينيان وهو بعد وليا للعهد ، راود خاله جوستين عن القانون الذى يحرم زواج لاعبات المسرح من أعضاء مجلس الشيوخ ، وما زال يراوده حتى ألغاه ، ليتسنى له الاقتتان بأشهر لاعبة للمسرح فى بيزنطة ، ثيودورا . ولم يلق جوستينيان بالا لكل ما قيل عن امرأة لاكت الألسن سيرتها حتى اضطرتها الى هجران دنيا العاصمة ، الى الشرق ثم الى ليبيا ، ثم لتعود الى القسطنطينية ، تعكف على مغزلها ، وصمم على أن يجعل من ثيودورا امبراطورة متوجة ، ليس فقط امبراطورة شريكة ، بل امبراطورة فعلية تجلس على عرش العالم الرومانى . هكذا ارتقت ثيودورا ، الممثلة المتوجة ، بتعبير شارل ديل ، من كواليس المسرح الى عرش القياصرة (١٤٩) . وكان على جميع الطبقات وفى مقدمتهم رجال السنانو ، بل والاكيروس ، أن يحنوا هاماتهم أمام هذه « الممثلة المتوجة » . أما الجموع التى كانت تلتهب بالتصفيق أكفها لرقصات مبتذلة خليعة كانت ثيودورا تؤديها من قبل على المسرح ، كان عليها الآن أن تهتف باسمها بكل الولاء والتبجيل ، وتمد أيديها ترجو عفوتها ورعايتها ، أليست مقدسة !! بل كان على رجال الاكيروس أن يخروا أمامها ركعا ، ويدعونها « السيدة .. صاحبة العصمة .. صاحبة الجلالة » . وليس هناك كاهن مسيحى واحد — كما يقول Hodgkin — أبدى احتجاجه على هذا التملق المخزى ! (١٥٠) .

ولعل ما أقدم عليه رهبان دير كونون من استخلاص الرجلين من يد الجلاد ، بعد نجاتهما من عملية الشنق ، وحمائيتهم لهما فى كنيسة سان

(148) PROCOPIUS, *bel. Pers.* I. XXIV, 45.

(149) Diehl, *Theodora, Empress of Byzantium*, p. 1.

(150) Hodgkin, *Italy and her Invaders*, III, p. 545.

لورانس ، ورفض تسليمها لجنود والى المدينة يودايمون ، الذين فرضوا حصارهم على الكتيبة ، لعل هذا التصرف يعد تعبيراً عن حالة الامتناع من جانب الرهبان ، خاصة اذا علمنا أن الامبراطور جوستينيان كان قد تدخل بصورة سافرة فى تنظيم حركة الرهبنة ، ونشاطات الأديرة ، وطرق انشائها وتنظيمها ، وأصدر فى ذلك عددا من التشريعات المتعلقة بصميم الحركة الديوانية . وعلى الرغم من أن هدف جوستينيان كان انتشال الأديرة من الفساد الذى تردت فيه ، إلا أن ذلك لم يشفع له عند الرهبان الذين عدوا قراراته تدخلا سافرا فى شئونهم (١٥١) .

ولم يكن نساء الطبقة الراقية فى العاصمة ، أقل حقدا من أزواجهن وحسدا ، على السيدة الأولى فى الامبراطورية ، التى ارتفعت من أزقة القسطنطينية ، والتى لم تكن سوى ابنة حارس الدببة فى المهدروم ، الى عرش القياصرة . وكان عليهم الآن أن ينحنين أمامها فى حفلات الاستقبال الرسمية . لذا لا نعجب اذا رأينا المؤرخين المعاصرين حدثونا عن اشتراك بعض نسوة هذه الطبقة الراقية فى الثورة ، خاصة ابان الأيام الثلاثة للحرب الأهلية (١٥٢) .

هكذا تجمعت كل هذه العوامل الاقتصادية والعقيدية والسياسية لدى السناتو والجيش ، وكذا الشخصية ، لتصنع ثورة القسطنطينية عام ٥٣٢ . لم تكن مجرد مؤامرة دبرها الاخوة الثلاثة أبناء أخ أنسطاسيوس ، بروبوس وبومبى وهيباتىوس ، وقدموا الرشوة للمثائرين ، كما يصورها المؤرخ المعاصر القومس ماركلينوس (١٥٣) Marcellinus Comes والذى كان ينتمى بولائه للقصر ، متعاطفا مع النظام القائم ، ولم تكن فقط

(151) IUS. Nov. CXXXIII.

(152) ZONAR. epit. XIV, 6; PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 6.

(١٥٣) أعد بيورى دراسة قيمة تحت عنوان The Nika Riot لم يناقش فيها الثورة وملابساتها ودوافعها ، لكنه اهتم بمقارنة كتابات المؤرخين المعاصرين عنها ، ومدى التشابه والاختلاف بين كل منهم . راجع هذا المقال القيم فى (JHS. 17, 1897, pp. 92-119)

مجرد احتجاج على جشع وسوء ادارة يوحنا الكبادوكى المالية ، كما يجمع بروكوبيوس ويوحنا الليدى وزكريا المتلىنى ، على النحو الذى أوضحنا من قبل • ولم تكن « ثورة مونوفيزيتية » فحسب كما صورها « باكر » BaKer (١٥٤) ، ولم يكن هدفها الوحيد فقط هو جوستينيان أو تغيير الأسرة الحاكمة كما يذهب بيورى (١٥٥) لأن الاطاحة بـ جوستينيان جاءت نتيجة طبيعية لفشله فى علاج الأمور ، وليس سببا فى قيام الثورة نفسها (١٥٦) •

وليس أصدق فى وصف هذه الثورة مما لخصه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى بقوله : « لقد نظمت هذه الثورة بيد كل العناصر الساخطة التى كانت تموج بها العاصمة » (١٥٧) ، كبار الملاك والفلاحون ، كبار التجار والحرفيون ، المثقفون والمحامون ، اليهود والوثنيين ، المانويون والسامريون ، المونوفيزيتيون والاريوسيون ، السناتو والحرس الإمبراطورى ، والنساء • ومن هنا جاءت تسميتى لها منذ البداية بـ « الثورة الشعبية » • ولم أعن بها ما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ، عامة الشعب وجموع رجل الشارع ، بل قصدت عمدا جميع فئات الشعب التى احتوتها القسطنطينية ، على النحو الذى شكا منه جوستينيان فى إحدى تشريعاته •

لم تكن الثورة تستهدف الجالس على العرش ، بل كانت تستهدف العرش نفسه ، لم تكن تبغى الاطاحة بحكومة جوستينيان ، بل كانت تود القضاء على نظام الحكم نفسه ، ذلك النظام الذى وضعه قسطنطين فى ثلاثينيات القرن الرابع ، ويمكن له الآن فى الأرض ، بقوة القانون وساطان القداسة ، « نيابة عن المسيح » ، جوستينيان ، دون اعتبار للسناتو والجيش ، ألم يعلن ذلك صراحة فى قوانينه ، بأنه يستمد سلطانه من الله

(154) Baker, Justinian, p. 87.

(155) Bury, Later Roman Empire, II, p. 42.

(156) Cameron, Circus Factions, p. 280.

(157) IOAN. LYD. de magist. III, 72.

وحده ، ولس من السناتو أو الجيش ؟ لقد كانت الامبراطورية تمر بفترة انتقال وتحول من عصر روماني الى عصر بيزنطي ، على امتداد القرون من الرابع الى السابع ، تختلط الأفكار وتموج الآراء وتتصارع النظم ، بين تراث يوناني روماني قديم ، ومبادئ عقيدة مسيحية ، وفلسفات يونانية سائدة ، ونظام سياسي في مجك التجربة • ولم يكن من السهل على كبار الملاك أن يتنازلوا عن سلطانهم الذي حققوه خلال فترات القرن الثالث والرابع ، عندما أصبحت الملكيات الكبيرة عصب النظام الاقتصادي الروماني • ولم يكن من اليسير على الجيش أن يتخلى طواعية عن ادعاء يحق مارس به لعبة السياسة زمنا ليس قصيرا • ولم كن مقبولا لدى السناتو أن يرى عرش سلطانه يهتز والى الأبد ، ليصبح مجرد صورة معلقة علي جدران الزمن ، دون أن يصارع من أجل البقاء •

لقد كانت الثورة بكل عناصرها الساخطة التي شاركت فيها ، تعبيرا عن الصراع الذي يعتمل بين هذه التيارات جميعها ، في مرحلة التحول من العصر الروماني الى العصر البيزنطي ، بكل مفاهيمه ونظمه السياسية والاقتصادية والعسكرية والعقيدية والثقافية ، ومحاولة أخيرة لم تشهدها الامبراطورية من بعد على امتداد تاريخها ، لأن كل ما حدث من تمرد ضد السلطة الامبراطورية من بعد ، على امتداد تاريخ الامبراطورية ، كان موجها ضد الجالس على العرش فقط ، ولكن في ظل النظام القائم •• ولم يكن هدفه الاطاحة بالنظام كله ، كما كان الطابع المميز والفريد للثورة الشعبية في القسطنطينية عام ٥٣٢ •

المصادر والمراجع

أولا - المصادر

- CSHB : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.
- CHRONICON PASCHALE, in CSHB, 2 vols. ed. L. Dindorf, Bonn 1832.
- CONSTANTINUS PORPHYROGENITUS : De Administrando Imperio, trans. by R. J. H. Jenkins, Budapest 1949.
- EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica. London 1854.
- IOANNES LYDUS, De Magistratibus, in CSHB. ed. I. Bekkeri, Bonn 1837.
- IOSEPHUS THE STYLITE, Chronicle, trans. by W. Wright, Cambridge 1882.
- IUSTINIANUS,
 - Codex Iustinianus, traduction, Tome Premier, Paris 1806.
 - Digesta, trans. by C. H. Monro, 2 vols. Cambridge, 1904-1909.
 - Novellae, traduction, 2 tom. Paris 1811-1812.
- LACTANTIUS, De mortibus Persecutorum, in Ante Nicene Fathers, ed. A. Roberts and J. Donaldson, Michigan, S. D.
- MALALAS, Chronographia, in CSHB. ed. L. Dindorf, Bonn 1831.
- MARCELLINUS Comes, Chronicon, in P. L. vol. LI, ed. Migne, Paris 1846.
- PROCOPIUS, Historia arcana, trans. by G. A. Williamson, London 1966.
De Bello Persico, trans. by H. B. Dewing, in 2 vols. London 1914.
- SOZOMENOS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. II, ed. Philip Schaff and H. Wace, Michigan 1891.
- THEODORETUS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. III, ed. Philip Schaff and H. Wace, Michigan 1891.

- THEOPHANES, *Chronographia*, in CSHB, 2 vols. ed. I. elassen, Bonn 1839.
- ZACHARIAH of MITYLENE, *The Chronicle*, trans. by F. J. Hamilton and E. W. Brooks, London 1899.
- ZONARAS, *Epitomae Historiarum*, in CSHB. 3 vols. ed. M. Pinder and TH. Buttner-wobst. Bonn 1897.

ثانياً - المراجع

- Baker. (G. P.), *Justinian*, London 1932.
- Bury (J. B.), *History of the Later Roman Empire*, 2 vols. London 1931.
- The Nika Riot, in *JUS*, XVII, 1897.
- Cameron (A.), *Circus Factions; blues and greens at Rome and Byzantium*, Oxford 1976.
- Demes and Factions, in *Byzantinische Zeitschrift*, 1974.
- Heresies and Factions, in *Byzantion*, XLIV, 1974.
- Diehl (Ch.), *Byzantium : Greatness and Decline*, trans. from the French by Naomi walford, New Brunswick 1957.
- Theodora, Empress of Byzantium, New York 1972.
- Downey (G.), *Constantinople in the Age of Justinian*, Oklahoma 1960.
- Hodgkin (TH.), *Italy and her Invaders*, vol. III, Oxford 1896.
- Holmes (W. G.), *The Age of Justinian and Theodora*, 2 vols. London 1912.
- Jarry (J.), *Hérésies et Factions dans L'Empire Byzantin, du IV, au VII, Siecle*, Le Caire 1968.
- Jones (A. H. M.), *Constantine and the Conversion of Europe*, London 1948.
- *The Later Roman Empire*, 3 vols, Oxford 1964.
- Kolbert (C. F.), *The Digest of Roman Law*, Penguin Book, 1979.

- Lindsay (J.), Byzantium into Europe, London 1952.
- Manojlovic (G.), Le Peuple de Constantinople, in Byzantion XI, 1936.
- Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome 2, Paris 1950.
- Ure (P. N.), Justinian and his age, Pengui Book 1951.
- Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols, Madison and Milwaukee 1964.
- Vryonis., Byzantine Circus factions and Islamic Futwa organizations, in Byzantinische Zeitschrift, LVIII, 1965.

— بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٧ •

— رأفت عبد الحميد (دكتور) : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى : قسطنطين ، القاهرة ١٩٨٢ — الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : أثناسيوس ، القاهرة ١٩٩٨٣ — الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع : ثيودوسيوس وأمبروز ، القاهرة ١٩٨٤ •

— هسى (ج. م) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٨٤ •

— وسام عبد العزيز (دكتور) : أضواء على مجتمع القسطنطينية ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، مجلة كلية الآداب — جامعة المنصورة — العدد الخامس •

— ويلمان (بول) : ثيودورا ، جزءان ، ترجمة ونشر دار الروائع ، بيروت ١٩٦٥ •